رواية
لعنة
الوريث
للكاتبة
مروة يحيى حسن
دار
أكاديمية
الكاتب
للنشر الإلكتروني

لعنة الوريث

رواية

مروة يحيى حسن

دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

للنشر الإلكتروني

رئيس مجلس الإدارة: محمود كمال

المدير العام: محمد حسن

الطبعة الأولى

الكتاب: الإرث الملعون

المؤلف: مروة يحيى حسن

تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية

تنسيق داخلي وتصميم غلاف: محمود كمال

المقاس١٤* ٢٠

الترقيم الالكتروني EBIN : 260102-1-7-60

التليفون : ٠١١١٢٣٥٧٤٧٣

Email:alkatebacademyforpublishing@gmail.com

موقعنا على فيس بوك: دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الفصل الأول : العودة إلى القصر

لم أكن أعلم أن تلك الرحلة القسرية ستجعل مني مسخًا من المسوخ التي كنت أسمع عنها في قصص المذيع أحمد يونس، بل إن المصيبة الأكبر أنني سأصبح قائد تلك المسوخ؛ رحلة من إيطاليا إلى مصر، رحلة بلا مفر، ولا عودة.

على الرغم من أنني قضيت معظم حياتي في إيطاليا مع والدتي العزيزة ويندا لينا، إلّا أنّ العربية لم تتركني يومًا، ولا العادات التي حملها أبي من بلده قبل أن يتركنا هناك.في صباحٍ هادئ، كنت أجلس مع أمي نتناول فطوري المفضل:

كروسان محشو بجبن الريكوتا، وقهوة إيطالية سوداء، وبسكوت محشو بالمربى.

لحظة عادية قبل أن يتغيّر كل شيء رنّ الهاتف.

ظهر على الشاشة اسمٌ ظننت أنّه اختفى من حياتي إلى الأبد: العم كامل، انقطعت كل اتصالاتي بعائلتي منذ سنوات، ولا أعرف السبب واليوم... عاد ليحادثني.

كانت الساعة السابعة صباحًا حين فتحت الخط وقلت:

ـــ خير يا عمي في إيه؟

سمعت صوت عمّي يلتقط نفسًا عميقًا كان صوته يحمل تهديدا خفيا أو ربما خوفآ مكبوتآ لا أعلم ثم قال بصوت جاف:

ـــ أبوك مات يا أنيس، لازم ترجع البلد حالًا.

شعرت ببرودةٍ تسري في أطرافي حاولت أن أقول شيئًا:

ـــ بس...

لكن الخط انقطع، انقطع... وكأن الرجل قال ما يريد وأغلق الخط في وجهي.

جلستُ مشدوهًا، لا أعرف كيف أعود ولا لماذا أعود الآن بالذات الأسئلة تصادمت داخلي كرصاص.

قطع حيرتي صوت أمي:

ــــ هتعمل إيه يا أنيس؟

لم أسمعها جيدًا.

ــــ هاه؟

كررت بصوتٍ أعلى:

ــــ يا أنيس... هتعمل إيه؟

أجبتها بشرود:

ــــ هطلب طيّارة خاصة، لو حجزت تذاكر عادية مش هلحق العزا.

أومأت أمّي بإيماءة قصيرة، وقالت:

ــــ تمام، ادخل حضّر شنطتك وأنا هتصرف.

دخلت غرفتي، بدأت أحزم حقائبي بلا وعي، بينما سمعت صوتها من بعيد تتحدث في الهاتف بإيطالية سريعة:

ــــ أريد حجز طائرة خاصة إلى مصر.

ــــ الاسم؟

أنيس يحيي منصور الغنامي.

ردّت الموظفة بإرتباك:

ــــ لكن الرحلة ستكلّف كثيرًا...

قاطعتها أمي بحزم لم أسمعه منها من قبل:

ــــ المال لا يهم.

ردت الموظفة قائلة :

ــــ المبلغ ٢٠٠ ألف يورو... والرحلة تقلع الثالثة عصرًا.

ردت أمي قائلة بحزم قائلة :

ـــ موافقة... سأحول المبلغ الآن.

انتهت المكالمة، ثم وصل إشعار إلى هاتفها ضغطت عليه.

كان تأكيد الحجز...تذكرة رحلة ذهاب بلا عودة، كما لو أنّ القدر كتبها قبل أن نعرف نحن.

* * * *

خرجتُ من غرفتي متجهًا نحو غرفة الجلوس بعد أن انتهيت من حزم حقائبي كلها. كانت والدتي إنطوانيت تنتظرني هناك، جالسة على حافة المقعد وكأنّ القلق يضغط على صدرها ثم قالت بصوتٍ مرتجف تخبئه بمهارة أمّ اعتادت إخفاء خوفها:

"خلصت يا أنيس؟!"

أجبت بإيجاز، محاولًا إخفاء توتري:

"آه يا ماما... خلصت."

اقتربت خطوة، كأنها تتحقق من أنني ما زلت أمامها، ثم قالت بنبرة أهدأ قليلًا:

"نام يا أنيس شوية.. لسه الرحلة طويلة."

أومأت دون رغبة:

"حاضر يا ماما... لما ييجي ميعاد الرحلة صحّيني."

مدت يدها، تلمس شعري بخفّة. نفس اللمسة القديمة التي كانت تطمئنني وأنا طفل يخاف الظلام ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

"حاضر يا حبيبي... نام وانت مطمّن."

تسطّحتُ على الأريكة الكبيرة المشابهة للسرير، بينما جلست أمي بجانبي، وضعت رأسي على فخذها، فمسدت رأسي برفقٍ يشبه الدعاء، كأن كل لمسة منها كانت محاولة سرّية لحمايتي من شيء لا أعرفه تسلّل الدفء من أصابعها إلى جفوني المتعبةِ...لكن شيئًا آخر كان يتسلّل أيضًا بين خيوط شعري التي تحرّكها أصابعها، رأيت ظلًّا يتحرّك

خلف زجاج الشرفة ظلًّا بشريًا... لكنه لم يتحرك كالبشر، تجمّدت لثوانٍ ربما من الإرهاق... ربما من الخوف.

رمقته بنظرة سريعة ، فاختفى الظلّ — أو هكذا ظننت.

أغلقت عيني، محاولًا تجاهل إحساس غريب...كأن هناك من يراقبني... من ينتظر رحلتي أكثر مني وواصلت أمي تدليك رأسي، غير مدركة لما رأيت، كأن الهدوء الذي تمنحه لي هو آخر ما يمكنها فعله... قبل أن يبدأ كل شيء.

* * * *

أوقظتني أمي من نومي، كانت الساعة قد اقتربت من الواحدة ظهرًا. نهضت بتثاقل، بينما توجهت هي إلى المطبخ لتُعد لي بعض الطعام اللازم للسفر.

بدأتُ أحمل حقائبي واحدة تلو الأخرى إلى الخارج، ثم ارتديت ثيابي على عجل، وكأن الزمن يدفعني دفعًا نحو طريق لا عودة منه، خرجت أمي من المطبخ، تحمل حقيبة الكتف الصغيرة التي كنتُ أستخدمها دائمًا في رحلاتي، فتحتها بهدوء، وبدأت تضع فيها السندوتشات، والكروسوان المحشو بجبنة الريكوتا والشيكولاتة— نفس الوجبة التي كانت دائمًا تجهزها لي قبل أي امتحان أو يوم مهم في حياتي. أغلقت الحقيبة بإحكام، ثم اقتربت مني، غمرتني بحنانها، وضمتني إلى صدرها كأنها تحاول حماية جزء من روحها قبل أن أغادر قالت بصوت مرتجف يخفي قلقًا غائرًا:

"خلي بالك من نفسك يا أنيس..."

لم أتمالك نفسي، ضممتها بقوة حتى كادت أنفاسي تختنق في صدرها اغرورقت عيناي بالدموع، وقلت بصوت متهدّج:

"ما تقلقيش يا أمي... بعد ما أحضر الدفنة والعزا وكل حاجة، هرجع تاني، مش هتأخر عليكي."

تركتُ حضنها على مضض، ثم تقدمت نحو الباب، وحقائبي بيدي. كانت واقفة بعيدًا قليلًا، تراقبني بنظرة لا تشبه أي نظرة رأيتها منها من قبل...نظرة أمّ تشعر بحدس لا يمكن تفسيره. نظرة وداع لا يقوله لسانها، لكن عيونها تعترف به. ثم فجأة...انفجرت بالبكاء، كأن شيئًا انكسر فيها، وركضت إلى غرفتها تُخفي دموعها. كانت تلك أول مرة منذ سنوات طويلة أبتعد فيها عنها...ولم أكن أعلم وقتها... أنه الوداع الأخير. مددت يدي إلى مقبض الباب لأفتحه، لكن قبل أن أفعل، وقفت للحظة أتأمل انعكاس زجاج الفيلا أمامي. و لاحظت شيئاَ غريب! كان انعكاسي كما هو...

لكن انعكاس أمي لم يكن في مكانها الحقيقي، كان يقف خلفي تمامًا...يتنفّس في رقبتي...رغم أنها كانت قد ابتعدت بالفعل إلى غرفتها. تجمدت، حاولت التركيز رمشت واختفى الانعكاس... كأنه لم يكن وقلت لنفسي بصوت خافت:

"يمكن أنا تعبان ."

فتحت الباب ببطء، وخرجت بهدوء إلى الهواء البارد.

كانت سيارة صغيرة تنتظرني أمام الڤيلا لتأخذني إلى المطار وضعت الحقائب، وجلست في المقعد الخلفي.

وبينما بدأت السيارة بالتحرك...لم أستطع منع نفسي من النظر مرة أخيرة إلى زجاج الڤيلا لم أرَ أمي...

لكنني كنت متأكدًا أن هناك من كان يراقبني من الداخل.

* * * *

لم يكن يجمعني بوالدي الكثير من الذكريات في الحقيقة... لم أره إلا في الصور العائلية التي تحتفظ بها أمي في صندوق خشبي صغير، كأنها تحرسها من الزمن لم أعرفه إلا من حكاياتها... تلك الحكايات التي كانت ترويها لي ليلًا، بصوت حالم لا يشبه صوت المرأة التي عاشت فراقًا قاسيًا. قالت لي يومًا إنها التقت به في المنيا لأول مرة، حين جاءت في زيارة سياحية مع عائلتها لم تكن تتوقع أن تقع في الحب، لكن—كما وصفت—

"كان مجرد نظره... وبعدها اتفتحت أبواب تانية كتير."

كانت والدتي مسيحية، ووالدي مسلم لكن الدين لم يقف يومًا في وجه ذلك الشغف الذي اشتعل بينهما، وانتهى بزواج لم يباركه العالم...لكن باركته قلوبهما، عام كامل مضى من زواجهما... قبل أن تنفجر المشاكل فجأة، وتعود أمي إلى إيطاليا وتحملني معها.

لم تخبرني يومًا عن نوع تلك المشاكل، كانت كلما سألتها، تكتفي بجملة قصيرة تحمل خلفها وجعًا لا يُفسَّر:

"مش كل حاجة ينفع تتحكي يا أنيس."

فتحت حقيبتي، وأخرجت الألبوم القديم الذي تصرّ أمي على أخذه في كل انتقال وكل سفر بدأت أتصفّح الصفحات...صورة تلو الأخرى...والدي يبتسم...أمي تمسك بيدي وأنا طفل...وآخر صورة تجمعنا نحن الثلاثة—الأخيرة قبل أن ينتهي كل شيء توقفت عند صورة قديمة لعائلتي من جهة أبي لم أكن أتذكر منهم سوى وجه واحد...

وجه عمي كامل، عيناه السوداوان اللتان يختبئ خلفهما ألف شيء غرقت في شرودي... لعلّي أحاول أن أستعيد ملامح رجل لم أعرفه، أو ربما أحاول أن أملأ الفراغ الذي تركه في حياتي لم أكن تجاه والدي أي مشاعر لكنني عندما سمعت خبر وفاته شعرت بالأسي حياله لكن صوت السائق الإيطالي قطع أفكاري بقوله:

"أيها الشاب... لقد وصلنا إلى المطار."

أغلقت الألبوم ببطء، وكأنني أغلق بابًا على ماضٍ لم أفهمه قط ثم ترجّلت من السيارة، فساعدني السائق في حمل الحقائب، ودفع عربة صغيرة باتجاه البوابة.

لم أتوقف كثيرًا عند الإجراءات كل شيء مرّ بسرعة...

كأن القدر كان يعجلني لوجهتي، توجهت إلى الطائرة المتجهة إلى مصر صعدت السلم المعدني، قلت في نفسي:

لماذا أعود لرجل لم أعرفه؟"

وشعور غريب يسري في صدري—خليط بين الشوق، والخوف، واللا يقين جلست في مقعدي، أغمضت عيني لثوانٍ ثم بدأت الطائرة بالتحرك، وما إن أقلعت عن الأرض، حتى شعرت أن حياة كاملة تبتعد...وحياة أخرى—مظلمة—تقترب حياة... لن يعود منها أنيس كما كانٍ ما إن أقلعت الطائرة، حتى شعرتُ وكأن شيئًا ما في داخلي لم يغادر الأرض أصلًا راودني شعور غريب حزن مختلط بغضب لتركي عندما كنت طفلا صغيرًا، أو ربما فضول عن سبب إنهاء تلك العلاقة بين أبي و أمي ، أو شعور بالذنب لعدم وجودي بجانبه كل تلك السنوات الطويلة..

* * * *

كأن جزءًا من روحي ظلّ معلّقًا في الفضاء بين إيطاليا ومصر، بين حياة عشتها وأخرى لا أعرف عنها سوى أشباح الذكريات كنت أشعر، كلما اقتربت الطائرة من حدود الشرق، بخيط خفي يشدّني بقوة نحو شيء لا أريده، كأن هناك مَن ينتظرني... وليس بالضرورة أن يكون من البشر جلست على إحدى المقاعد، فتحت هاتفي من نوع أيفون ١٧ الحديث بدأت أكتب في جوجل بحث عن المسوخ المصرية القديمة لا أعرف لماذا خطر ببالي أن أبحث عنه ، ظهر لي عدة مواقع ، ضغطت علي أول موقع فظهر لي الآتي :

مسوخ مصر القديمة" تشير غالبًا إلى **المعبودات التي تجمع بين صفات بشرية وحيوانية** (مثل **سوبيك** التمساح، **حورس** الصقر، أو الإله **بس**)

١. الأرباب والكيانات المجنحة والمشوهة (المسخ)

- **سوبيك:** إله التمساح، يمثل إما التمساح أو إنسان برأس تمساح، مرتبط بالسلطة والخصوبة.
- **حورس:** يُصور غالبًا برأس صقر وجسد إنسان، كرمز للملكية والحماية.
- **الإله بس:** جنية ودودة ذات ملامح غريبة تُستخدم لصد الشر، خاصة وقت الولادة.
- **العنخ (مفتاح الحياة):** رمز صليب بحلقة علوية، يمثل الحياة وتمنحه الآلهة للملوك، ويُعتبر شكلاً من أشكال "المسخ" في الفن (صليب بحلقة).

٢. التماثيل والمنحوتات "المسخية"

- **منحوتات مشوهة:** توجد منحوتات مصرية قديمة أثارت الجدل بسبب مظهرها "المسخ" أو غير المتناسق، خاصةً التماثيل التي تعرضت للتلف أو الترميم السيئ، مما جعلها تبدو غريبة أو "مسخًا" في نظر الجمهور المعاصر.
- **٣-مفاهيم أخرى متعلقة بـ "المسخ"**
  - **الحيوانات المقدسة:** القطط كانت مقدسة (ماو)، والحيوانات بشكل عام كانت تجسد صفات الآلهة، مما يربطها بفكرة "المسخ" في العبادة المصرية.
  - **التحريفات التاريخية:** بعض المعتقدات الحديثة تربط بين الآلهة المصرية وحكايات "المسخ" في الأديان الأخرى، كتحويل إيزيس إلى "عزى"، وهو ما يُناقش تاريخيًا ودينيًا.

باختصار، "مسوخ مصر القديمة" مصطلح واسع يشمل مزيجًا من **الآلهة المركبة، والمنحوتات الغريبة، وحتى الحالات الطبية النادرة**، وكلها تعكس

تعقيد الفن والمعتقدات في تلك الحضارة العظيمة.
أغلقت الهاتف بعدما قرأت البحث ثم دخلت الغرفة الخاصة في الطائرة، تلك التي تشبه غرفة فندق صغيرة؛ سرير عريض، تكييف ثابت البرودة، جهاز راديو حديث وشاشة تلفاز معلّقة أمامي. أردت أن أستريح قليلًا، فأشعلت التلفاز وبدأت أقلب القنوات بلا اهتمام، حتى توقّفت عند قناة أجنبية تتحدث عن الأشباح والبيوت المسكونة. شيء ما شدّني إليها. منذ صغري أحببت مثل هذه القصص، ولم أكن أعلم أنني على وشك أن أصبح جزءًا منها. فتحت حقيبة الساندوتشات التي أعدّتها أمي، أكلت سريعًا، ثم استلقيت على السرير وغلبني النعاس قبل أن تنتهي الحلقة، والحقيبة لا تزال بجواري، غفوت... ولم يكن ذلك نومًا بل سقوطًا. وجدتُ نفسي واقفًا في بهو قصر ريفي قديم، جدرانه تغطيها تشققات طويلة كأن الزمن كان ينهشها بأظافره. الممرات واسعة بشكل غير طبيعي، تمتد في الظلام كأنها لا تنتهي. وفي آخر أحدها ظهر باب ضخم، لم ألمسه حتى انفتح وحده، ولَفَحني هواء بارد يحمل رائحة تراب مبلل... ورائحة أخرى لم أعرفها لكنها جعلت جسدي ينتفض. أمامي سلّم حجري يهبط إلى الأسفل... ثم أسفل... ثم أسفل. عدد درجاته لا يُحصى، كأنني أقف على فم هاوية لا قرار لها. كان قلبي ينقبض، لكن قدميّ تتحركان وحدهما كأن قوة خفية تسحبني إلى العمق. وكلما نزلت درجة، شعرت أن الظلام يتنفس من حولي. سمعت همسًا... صوتًا ليس صوت بشر... أقرب إلى زفير بطيء يلامس أذني. ثم جاء الصوت واضحًا، يهمس من داخلي لا من حولي: "

- الموت... مش نهاية. ده بس البداية."

شعرت أنني أسقط بلا توقف، فبدأ جسدي يلتوي على السرير كأنني أحارب شيئًا يُمسك بي مرة واحدة، اخترق الحلم صوت بشري:

– "سيد أنيس... سيد أنيس! إحنا على بعد ساعة من القاهرة!"

فتحت عينيّ على وجه المضيفة فوقي. كنت أتنفس كأنني ركضت لأميال. نظرت من النافذة..ثم سمعت صوت لا أعلم مصدره يقول :

لو بدأت تري أشياء في السماء لا تخبر أحد ..

ابتسمت قائلا :

أشياء ايه ؟! انا شكلي بدأت أهلوس ..

بدأ السحاب ينفصل ويتفرّق تحت الطائرة ببطء، كأنه ينكشف عن سرّ دفين ينتظر خروجي من السماء. كانت مصر هناك... لكنها لم تكن مصر التي أحببتها في طفولتي. كانت مصر أخرى... مصر اللعنة التي ورثتها دون أن أطلبها ما إن اقتربنا نظرت مجددا من النافذة بدأت الطائرة تهبط تدريجيًا، وتحت جناحها ظهرت الصحراء أولًا...بحر من الرمل الذهبي لا يقطعه إلا طرق رفيعة تمتد في فراغٍ صامت بعد دقائق بدأت مباني القاهرة الجديدة تطفو من تحت السحاب، مربعات مضاءة، وشوارع مستقيمة كأنها لوحات هندسية وحين انخفضنا أكثر، ظهرت العمارات القديمة مزدحمة تحتنا، وأسطح البيوت القريبة لدرجة تشعرك أن الطائرة تكاد تلمسها عندها فقط أدركت أننا ندخل القاهرة... المدينة المزدحمة.

* * * *

بعد مرور ساعة كاملة من القلق والشرود، هبطت الطائرة أخيرًا في مطار القاهرة الدولي. وما إن وطئت قدماي أرض المطار حتى ضربتني رائحة لم أعرفها منذ زمن طويل—مزيج غريب من الغبار الحار، والعطور الشرقية الثقيلة، وعرق آلاف المسافرين. الجو كان خانقًا رغم أن الشمس كانت في طريقها للغروب، لكنها ما زالت تنفث آخر أنفاسها فوق المدينة، اتجهت إلى صالة الوصول، أحمل حقيبة يدي وأحاول إخفاء ارتباكي. هناك، وسط الزحام، كان رجلٌ يقف بثبات غريب، يحمل لافتة بيضاء مكتوبًا عليها اسمي بالعربية بخط عريض وواضح. بدا في منتصف الأربعينيات من عمره، بدلة سوداء، بشرة سمراء بها خطوط التعب، ووجه بلا أي تعبير... كأنه قناع.

تقدمت نحوه، وما إن اقتربت حتى نطق دون أن يرمش:

– "أنيس يحيي منصور الغنّامي؟"

رفعت يدي قائلا :

– "أيوه... أنا."

هزّ رأسه مرة واحدة وقال بصوتٍ شديد الرسمية:

– "أنا محروس... السواق. عمّك كامل بعتني أستقبلك."

لم ينتظر ردّي. التقط الحقائب من يدي بطريقة آلية، ثم دار حولي كأنه يوجّهني دون أن يلمسني، وسار بسرعة خاطفة نحو البوابة الخارجية. تبعته—لا أدري لماذا—لكن شيئًا في نبرته كان يجعل من الصعب الاعتراض... كأن صوته يضغط على منطقة خفية في صدري في موقف السيارات كانت تنتظرنا سيارة مرسيدس سوداء قديمة... تلك

الأنواع التي ترى مثلها في الأفلام القديمة أو في مواكب العائلات الكبيرة.فتح الباب الخلفي وهو يقول بدون أن ينظر إليّ:

– "حط شنطك ورا... وتعالى اقعد جنبي."

نفّذت ما قاله بدافع غريب، وجلست جواره. ما إن أغلقت الباب حتى انطلقت السيارة بسرعة مفاجئة، كأن محروس يعرف كل فجوة وزاوية في زحام القاهرة... أو كأنه يتفادَى شيئًا يلاحقنا.

– "إحنا رايحين على فين بالظبط؟"

قلت ذلك وأنا أتمسك بحافة المقعد.

أجاب دون أن يلتفت:

– "المنيا الدفنة بكرة الصبح."

أجبته بتوتر قائلا :

– "المنيا؟... بس المسافة طويلة يا حاج المفروض نتحرك بدري."

– "هنبات في فندق الليلة وهنسافر على آذان الفجر."

عاد الصمت يملأ السيارة إلا من صوت "ضجيج الشوارع المصرية الذي يتسلل حتى داخل الزجاج المغلق" ظللت أنظر للطريق، لكن في داخلي سؤال واحد يتردّد كأن شخصًا يتمتم به في أذني:

أبوك مات إزاي؟

لم أستطع منع نفسي:

– "محروس... هو بابا مات إزاي؟"

هذه المرة التفت إليّ لثانية واحدة. كانت عيناه واسعتين... ثابتتين... وفيهما شيء غريب، كأنهما تحملان سرًا أثقل من أن يُقال. ثم أعاد وجهه للطريق وقال بصوت منخفض وخشن:

– "لما توصل... عمّك هيقولك."

كانت تلك نهاية كل الأسئلة أسندت رأسي إلى زجاج السيارة أنظر إلى القاهرة التي أعرفها أو التي ظننت أنني أعرفها. ذكريات طفولية مبعثرة عادت إليّ: صوت الأذان، رائحة الفلافل الساخنة، ضحكات أبناء عمومتي... لكن كل ذلك كان بعيدًا، ضبابيًا، مثل صور محروقة الأطراف الآن كل ما أراه هو شوارع مكتظة، أضواء صفراء تهرب فوق زجاج السيارة، وجوه مجهولة تمر بسرعة... وشيء ما في الجو يخبرني أن هذه العودة ليست عادية وفجأة...على مرآة السيارة الأمامية... انعكس شيء خلفي ظلّ... يقف وسط الزحام... لا يتحرك.

ومحروس رفع عينه للمرآة للحظة...ثم قال بصوت منخفض جدًا، بالكاد يُسمع:

– "متبصّش وراك يا أنيس."

* * * *

بعد مرور نصف ساعة، توقّفت السيارة أمام فندق قديم في قلب القاهرة. لم يكن فخمًا، بل كان يشبه صفحة مطوية من كتابٍ مهترئ. واجهته العالية سوداء من أثر الزمن، ونوافذه تحمل بقعًا لا تزول، أما الرائحة في الداخل فكانت خليطًا غريبًا من العتق والبخور والرطوبة؛ كأن المكان يتنفّس منذ قرنٍ كامل دون أن يفتح أحدٌ نوافذه تقدّم محروس إلى مكتب الاستقبال، ثم عاد إليّ وهو يناولني مفتاحًا نحاسيًا ثقيلاً:

"غرفتك ٣١٣، ريّح الليلة وهنمشي ٤ الفجر، ما تتأخرش."

لم ينتظر ردّي. استدار وغادر بخطوات سريعة، ثم سمعت صوت سيارته يبتعد تدريجيًا... كأن المكان يبتلع ضجيجها.

وقفت أمام باب الغرفة لحظةً طويلة. كان الخشب قاتمًا، محفورًا بخدوش كثيرة، كأن من مرّوا هنا لم يكونوا مجرد نزلاء... بل شيء آخر فتحت الباب اندفعت نحوي رائحة خانقة—ثقيلة، دافئة، موحلة بذكرياتٍ لا أعرفها. أضأت المصباح، فانكشفت غرفة بسيطة: سرير خشبي، خزانة قديمة، مكتب صغير، ومصباح أصفر يرمش كأن أحدًا يعبث فيه وعلى المنضدة... مغلّف بني فتحتُه ببطء، كان بداخله تذكرة سفر ذهاب فقط، من القاهرة إلى روما، بتاريخ بعد أسبوع واحد بلا رسالة بلا توقيع بلا سبب تجمّدت للحظة.

"على الأقل عاوزني أرجع."

قلت لنفسي، دون أن أصدق الفكرة تمامًا تمدّدت على السرير، أحاول النوم، لكن رأسي كان ممرًا طويلًا من الأسئلة:

أبي الذي لم أعرفه...عمّي كامل الذي انقطعت صلتي به لسنوات...وهذه العودة التي تبدو وكأنها مصيدة قَدَرية أكثر من كونها رحلة عائلية وفجأة... اندفعت إلى ذهني ذكرى قديمة—ذكرى حاولتُ دفنها أكثر من عشرة أعوام.

كنت في السابعة من عمري تحديدًا في تلك الليلة التي لم تُنسَ كنت نائمًا في غرفتي بإيطاليا حين استيقظت على همهمات غريبة. نظرت نحو باب الغرفة فوجدت ظلًا طويلًا يقف هناك. لم يكن شخصًا. كان كتلة من سواد يتحرّك ببطء يزحف نحوي دون قدمين تصلّبتُ في مكاني. أردت أن أصرخ لكن صوتي مات في حلقي.

وعندما حاول الظل الاقتراب من فراشي، صرخت بكل قوتي:

"ماما!!!"

اندفعت أمي إلى الغرفة. وما إن دخلت اختفى الظل كأنه لم يكن لكنني أعلم أنه كان واقعيًا. لم يكن حلمًا.

في الصباح، وجدت على رقبتي علامة غريبة:

شكل يشبه ثلاثة أهرامات صغيرة متداخلة.

أريتها لأمي... فتغيّر وجهها كأنها رأت شبحًا.جلست قرب سريري، ومسحت العلامة بزيت الزيتون وهي تتمتم بآيات من القرآن... رغم أنها مسيحية ملتزمة.ثم قالت لي يومها، وعيناها تهتزان:

"يا أنيس... ما تقولش لحد عن اللي شُفته. أبدًا."

اختفت العلامة بعد أيام...لكن الذكرى لم تختفِ.

بل عادت الليلة، كأن شيئًا في القاهرة أيقظها من نومها الطويل استلقيتُ الآن في غرفة الفندق، أراقب ظل المصباح المرتجف على الحائط...وأفكّر:

عودة قسرية...أب ميت...إرث عائلي لا أعرف عنه شيئًا...علامة الطفولة...والمنيا التي أذهب إليها فجرًا...العم كامل الذي لم أره منذ طفولتي تلك الحادثة، أمي، إيطاليا

ثم ثقل النوم سحبني ببطء، حتى غفوت...غفوة تشبه سقوطًا نحو بداية لا عودة منها.

*** * * ***

في الساعة الرابعة تمامًا، اخترق سكون الفندق طرقٌ حادّ على الباب. نهضت ببطء، وما إن فتحته حتى وجدت محروس واقفًا في المدخل، وجهه شاحب بعض الشيء، وفي يده فنجان قهوة يتصاعد منه بخار خفيف.

قال بصوته الخشن:

"اشرب ده... الطريق طويل أدامنا."

أخذت الفنجان منه. كانت القهوة مرة، ثقيلة، وكأنها وُضعت عمدًا لتوقظ أعماقًا لا تريد الاستيقاظ. شربتها بسرعة، ثم أمسكت حقيبتي الصغيرة وتبعته إلى السيارة.

كانت شوارع القاهرة ما تزال ساكنة. الأنوار الصفراء تتلاشى على الأرصفة، والمدينة التي لطالما بدت صاخبة ومزدحمة، ظهرت الآن هادئة... غامضة... وكأنها تخفي أسرارًا لا تنطق بها إلا لهذا النوع من الليل وما إن عبرنا حدود المدينة، حتى بدأت الصحراء تمتد من حولنا، كبحر رملي صامت. كانت السماء تتدرّج ببطء من السواد إلى الأزرق الداكن، ثم إلى لونٍ برتقالي دافئ مع أول خيطٍ للشمس مرّت ساعات طويلة غارقة في الصمت، حتى شعرتُ بضرورة كسر هذا الصمت الذي صار يخنقني.

قلت دون أن أرفع عيني عن الطريق:

"انت تعرف أبويا؟"

أومأ محروس برأسه، دون أن يلتفت نحوي.

"بقالك قد إيه... بتشتغل مع عيلتنا؟"

أجاب بصوت منخفض:

"من يوم ولادتك."

شعرت بشيء يتجمد بداخلي. رفعت بصري إليه، فأضاف بعد صمتٍ ثقيل:

"كنت موجود... يوم عيد ميلادك."

لم يكمل. بدا وكأن الكلمات الأخرى عالقة في حلقه، تُقاوم الخروج، وكأنه يخشى أن يقولها أو يمنعه شيءٌ ما من النطق بها عاد يحدق في الطريق أمامه، لكنني لاحظت—— للمرة الأولى—— ارتجافه خفيفة في يده التي تمسك بعجلة القيادة، ارتجافه لا تناسب رجلاً اعتدت أن أراه ثابتًا، جامدًا، لا يظهر ضعفًا أبدًا استدرت نحو النافذة، أراقب

الطريق الممتد أمامنا. كانت مصر تبدو لي غريبة كأنني أراها للمرة الأولى. بلدٌ غادرتها صغيرًا، وعدت إليها الآن مدفوعًا بيدٍ خفية، بسبب وفاة أبي أو ربما بسبب شيءٍ أوسع وأعمق لا أستطيع فهمه بعد كانت الشمس ترتفع شيئًا فشيئًا، لكن داخلي كان يزداد قتامة.

* * * *

مع اقتراب الظهيرة، بدأت ملامح المحافظة تتضح، المنيا محافظةٌ ترقد على ضفاف النيل، تحمل في تاريخها ظلال ملوكٍ ومعابد قديمة. لكنّ المنيا التي رأيتها من نافذة السيارة لم تكن تلك التي عرفتها في الصور؛ كانت أكثر صمتًا، وأكثر قتامة قادني محروس نحو المقابر خرجتُ من السيارة بعد رحلة طويلة إلى المنيا.. .على باب المقابر كان هناك رجال كثيرون، يقفون في صمت، وجوههم شاحبة، ترتسم عليها نظرة غريبة ليست حزينة تمامًا وليست معتادة بل أقرب إلى الترقّب اقترب منّي رجل مسنّ يرتدي جلبابًا أسود. سأل بصوت رخيم:

"أنت أنيس؟ ابن المرحوم؟"

أومأت بصمت، اقترب أكثر، أمسك يدي بقوة وقال:

"البقاء لله يا بني... بس خليك عارف... أبوك كان راجل طيب... ومات مظلوم."

تجمدت قدماي قبل أن أسأله ماذا يقصد، جاء عمي كامل من خلفي، وضع يده على كتفي بقوة:

"كفاية كلام يللا على القبر."

كان صوته حادًا... كأنه يمنع الرجل من قول شيء آخر.

نزل الرجال بالجثمان إلى اللحد، وبدأت الفاتحة تُتلى.

الهواء كان ثقيلًا... رطبًا... كأن القبر نفسه يتنفس.

وقفتُ بجوار عمي كامل، الذي لم يرفع عينيه عن القبر لحظة واحدة رجل طويل القامة، ضخم، بطيء الحركة، عيناه سوداوان ثابتتان كأنهما زجاج بلا حياة. كان في الخمسينيات من عمره، يرتدي جلبابًا أبيض نظيفًا رغم غبار المكان ملامحه قاسية همست له:

"عمي... بابا مات إزاي؟"

لم يلتفت. ردّ بصوت منخفض:

"مش وقته يا أنيس."

ازددت توترًا وبينما كان التراب يُهال فوق الجثمان، لاحظتُ شيئًا ظلًّا طويلًا بجانب شجرة في آخر المقابر.

لم يكن ظلّ رجل، كان طويلًا ومشوهًا وعندما رمشتُ، اختفى ظننت أنني أتخيل بسبب التعب انتهت الجنازة، وبدأ الناس يعزّون عمي أكثر مني، وكأنهم يعرفونه جيدًا... أو يخافون منه.

****

بعد انتهاء مراسم الجنازة صعدت أنا و عمي كامل إلى سيارته ومعنا السائق محروس وابن عمي كمال يدعي حارس جلس عمي في المقعد الأمامي وجلست أنا و حارس في الخلف اتجهنا بعدة سيارات كانت سيارة عمي كامل في المقدمة وخلفه باقي السيارات قادنا محروس عبر طرقٍ جانبية نحو حيّ قديم على أطراف المدينة، حتى توقف أمام قصرٍ ريفيّ شاسع، منعزلٍ عن كل شيء. بدا القصر كأنه نبت من الأرض منذ قرون، جدرانه عالية بلون باهت، والنوافذ مغلقة بإحكام، والحديقة الأمامية مليئة بالأعشاب الوحشية التي لم يمسسها إنسان منذ زمن كانت الأرض المحيطة بالقصر غامقة ورطبة بشكلٍ غير طبيعي... حتى في منتصف الصيف. وعلى الجانب، تمتد بحيرة واسعة ساكنة، يسبح فوقها عدد من البجع الأبيض، يتحركون ببطءٍ مقلق، كأنهم يحرسون شيئًا. ترجل من السيارة وفتح باب عمي أولا ثم بابي. وقفت أمام المبنى، وشعور بارد تسلل إلى صدري... كأنني رأيت هذا المكان من قبل، ربما في حلم قديم، أو كابوسٍ نسيت تفاصيله فتح عمي الباب الخشبي الضخم ثم دخلنا جميعا إلى القصر الريفي الواسع كان البيت مضاءًا بالأنوار الخافتة، والناس يجلسون في صمت غريب لا بكاء، لا نواح مجرد نظرات... نظرات تتجه إلى وجهي كل دقيقة كأنهم ينتظرون شيئًا، جلس عمي كامل بجانبي على الأريكة اقتربت امرأة عجوز، وضعت يدها على رأسي وقالت بصوت ضعيف:

"ربنا يقدّرك يا بني على اللي جايلك."

تجمدت في مكاني.

"يعني إيه اللي جايلي؟"

نظرت إلى عمي بسرعة، وارتبكت:

"أنا... أنا آسفة..."

وأشار لها بيده أن ترحل فورًا، مع مرور الوقت، بدأ الناس يغادرون.

وأصبحت أنا وعمي ومحروس فقط في الصالة الواسعة التي يملؤها البخور ورائحة الخشب العتيق، جلس عمي في رأس الطاولة، وناداني:

"تعالى يا أنيس. في كلام مهم لازم يتقال."

اقتربت منه وأنا أشعر بأن الأرض تهتز تحت قدمي.

أشار نحو كرسي خشبي، فجلست أمامه وحدّق في عينيّ طويلًا... بنظرة فيها حزن... وفيها خوف... وفيها شيء آخر لم أفهمه.

قال أخيرًا:

أولًا... أهلا بيك في بيت العيلة. وثانيًا... بطلب منك تسمع كل كلمة... قبل ما تقاطعني."

أومأت، فقال بصوتٍ منخفض:

"أبوك مامتش موتة طبيعية... أبوك اتقتل. اتقتل لأنه حاول يكسر اللعنة."

اتسعت عيناي.

"لعنة إيه؟"

نهض عمي واتجه نحو خزانة خشبية ضخمة. فتحها وأخرج صندوقًا معدنيًا صغيرًا. وضعه أمامي، وفتحه ببطء داخل الصندوق كانت هناك مخطوطة جلدية قديمة، وخاتم ذهبي يحمل نفس الرمز الذي ظهر على رقبتي وأنا طفل—ثلاثة أهرامات متداخلة، قال بصوت أجش:

"اللعنة ديه بقالها أكتر من ١٠٠ سنة. لما واحد من أجدادنا خان عهد... عهد كبير. ومن يومها، كل وريث للعيلة... مصيره مربوط بالسرداب."

بلعت ريقي بصعوبة:

"سرداب إيه؟"

أشار إلى الأرض.

"تحت القصر. سرداب بناه أجدادنا من قرون... لحماية سرّ وخطيّة."

اقترب مني وقال:

"أبوك حاول يدخل السرداب... ومن أسبوع خرج منه جثة."

نهضت من مكاني:

"ليه؟! إيه السر إللي جوّه؟!"

ردّ بنبرة هادئة لكنها مخيفة:

"في كل جيل... واحد فينا بيكون الحارس. يدفع الثمن. وانت يا أنيس..."

توقف، ونظر إليّ بنظرة تجمع بين الشفقة والرعب:

"...انت الحارس الجديد."

ارتجف صوتي:

"يعني إيه الكلام ده؟"

رد بحزم:

"يعني لازم تنزل السرداب، اللعنة مش هتسيبك وهتفضل وراك وورا إللي حواليك، لحد ما تقوم بدورك."

اقترب فجأة، أمسك رقبتي بقوة:

"انت لو ما نزلتش اللعنة هتوصل لوالدتك."

صرخت:

"أنا مش هدخل أي سرداب! أنا كنت جاي علي أساس إني أدفن أبويا وأحضر العزا وبعدين أرجع لإيطاليا!"

ترك رقبتي ببطء، رمقني بنظرة مرعبة ثم قال بنبرة غاضبة جدًا حادة كالسكين:

"اللي يرفض ورث الغنّامي، يعاقبه أهل السرداب بنفسه."

سحبني من قميصي نحو غرفة أبي و هناك لوّح بيده نحو النافذة:

"بُص."

نظرت. كانت الشمس في طريقها للغروب، والظلال تتمايل.

ثم قلت بدهشة :

"ايه؟!..."

حدق نحو النافذة بثبات رهيب قائلا :

استني..

وبينما أحدق، بدأت الظلال تتجمع تلتف على الأرض، تتشكل، تتحول إلى أشكال بشرية بلا ملامح. تتحرك ببطء وتتجه نحو القصر، همست:

"إيه ده...؟"

ابتسم عمي ابتسامة شاحبة:

"أول مرحلة من اللعنة، الحُرّاس عرفوا إن الوريث وصل."

وفجأة... طرق الباب بقوة صرخ محروس من الخارج:

"يا سيدي!... دول هنا!"

وقف عمي بسرعة:

"اسمعني كويس يا أنيس؛ ما تفتحش شباك ولا باب مهما حصل."

تمتمت قائلا :

"بس—"

قال بنبرة شديدة اللهجة :

"لو عاوز تعدّي الليلة ديه على خير... اعمل إللي بقولك عليه!"

خرج وأغلق الباب، وأدار المفتاح، تركني وحيدًا، جلست على الكرسي، والمساحة من حولي تضيق. ثم بدأت أسمعها، همهمات من تحت الأرض من السرداب، كان الصوت كصلوات قديمة، كلمات عربية مكسورة، تختلط بأنين، وبأصوات لا بشرية اقتربت من الباب وضعت أذني عليه.

خطوات ركض صرخة محروس ثم—صمت صمت كثيف ثقيل، أسوأ من كل الأصوات، عدت ببطء نحو النافذة، الفوانيس في الخارج اشتعلت، لكن ضوئها بالكاد يخترق الزجاج المتسخ وعندها رأيتهم...الظلال لم تعد تتحرك مع الشجر بل كانت واقفة صفوف كاملة من الظلال البشرية، كلها تحدق نحوي ثم بدأت تقترب.

*** * * ***

الفصل الثاني : إرث الأسلاف

رأيتهم يحاصرون القصر من الخارج، عشرات الظلال تقف في صمتٍ أوّلي، قبل أن تبدأ الهمسات بالتصاعد همسات ثم همهمات ثم صرخات مكتومة كأنها صادرة من بئرٍ مفتوح على الجحيم، تراجعت خطوة إلى الوراء، لكنهم لاحقوني بنظراتهم رغم أن لاً وجوه لهم، كانت تلك الكيانات كتلة ظلامية كثيفة، سوداء تمامًا، بلا أعين ولا أفواه... ومع ذلك كنت أشعر بأنها تحدّق بداخلي لا بجسدي انحنت الظلال نحو النوافذ، والتصقت بالزجاج كأنها تبحث عن ثغرة للعبور فجأة... ارتفعت صرخة حادة من بينهم، وانفجرت من أعماقي صرخة حادة مقابلة الغريب أنه لم يسمعني أحد و كأن القصر خالي من سكانه

تراجعت خطوة أخرى لكن الزمن توقّف، النافذة بدأت تفتح ببطءٍ يكسر الأعصاب صوت صريرها كان أشبه بجرّ سكين على عظام الإنسان ثم اندفعوا، اندفعوا جميعًا دفعة واحدة بسرعة غير بشرية قبل أن أستوعب ما يحدث، سقطتُ أرضًا، وتجمّعت الظلال حولي، تطوّقني من كل الجهات تشكلوا على هيئة نجمة ضخمة، وبدأوا يدورون حولي بسرعة تجعل الأرض تهتز، ارتفعت عن الأرض، شعرت بأكتافهم التي لا أراها وهي تحملني، وبرودة الهواء وهي تشقّ صدري ثم ارتفع صوت واحد، تلاه عشرات، ثم مئات:

"الوريث... الوريث... لقد عاد أنيييس!"

كانت الهتافات ترنّ كأصداء في قاعة مقفلة وفجأة انفتح باب الغرفة ببطء مرعب ثم توقف كأن يدًا خفية دفعته ثم اختفت، اختفى الصرير ثم اختفوا هم اختفوا في لحظة واحدة ـــكما لو أن الهواء التهمهم، سقطت على الأرض بقوة، ولم أعد أسمع شيئًا سوى نبضي نهضت بصعوبة، توجهت نحو الباب... لم يكن هناك أحد لا أثر لعمي كامل... ولا أثر لبشر كأنه تبخر أو كأنه لم يكن موجودًا أصلًا أغلقت الباب بارتجاف، وعدت إلى السرير.

جلست للحظة، أتنفس بلهاث، أحاول فهم ما حدث.

هل ما رأيته كان حقيقة؟ هل عقلي بدأ ينهار؟ أم أن هناك من يحاول ـــبمهارة مخيفةـــ إعدادي لشيء أكبر؟

استلقيت وآخر ما شعرت به كان ذلك الثقل الذي فوق صدري، كأن أحدهم يطبق علي أنفاسي... قبل أن أغفو في دوامة مظلمة.

رأيت كابوسًا مفزعًا في منامي لكنه لم يكن كابوسًا عاديًا كان واضحًا واقعيًا بدرجة تجرح، كنتُ أصعد السلالم القديمة لعمارة خالتي ماريا، تلك التي لا تزال محفورة في ذاكرتي منذ الطفولة—الدرابزين الحديد، الجدران الرطبة، رائحة الخشب القديم ما إن وضعت قدمي على أول درجة...حتى فتح باب شقة الدور الأول ببطء.

كان الباب يئنّ، كأنه يتحمل ثقل مئة سنة ومن خلفه... ظهرت جدتي جدتي الميتة منذ سنوات رغم أنني لم أراها من قبل سوي في الصور لكنّها لم تكن كما أتذكرها.

كانت عيناها واسعتين، سوداوان كالبئر، فمها مفتوحًا كأنها تريد أن تصرخ... أو تبتلع الهواء وجهها شاحب، وجسدها نحيل، لكن خطواتها...كانت سريعة مرعبة خرجت نحوي، فجأة بدأت تركض خلفي على السلم بسرعة لا تشبه البشر.

كنت أسمع قدميها تضرب الأرض بقوة، وصوت أنفاسها المقطوعة كأنه صدر من صدر شخص غارق ركضتُ بكل ما أملك، قلبي يتخبط في ضلوعي، وعرقي ينساب رغم البرد لم أركض هكذا في حياتي لكنّ صوتها...كان الأكثر رعبًا صرخت باسمي بصوت مخنوق، مكسور، متحشرج—صوت لا يخرج من حلق حيّ:

"أنـــــيس... ليـــــــه ماجيتليش؟!"

كلمة "ليه" خرجت منها طويلة، مشوهة، كأنها تمتد عبر كل طابق من السلالم تعثرتُ، كدت أسقط...التفتُّ خلفي—

كانت على بعد درجتين فقط عينها في عيني ابتسامتها تزداد اتساعًا...ويدها تمتد نحوي ثم فجأة—انهار كل شيء حولي:

الدرج، الجدران، الباب...

كأن المكان انشطر نصفين وسقط في ظلام لا نهاية له.

فتحت عيني جلست على السرير فجأة، أتنفس كمن خرج تواً من غرق العرق يغمر وجهي رغم أن جسدي بارد بشدة بارد لدرجة الرجفان أطرافي ترتعش، وأسنانى تكاد تصطكّ ببعضها، قلبي يخبط بلا انتظام يتلوى داخل صدري.

لم أستطع إدراك أين أنا...الغرفة... السرير... النافذة... كل شيء كان يبدو غريبًا للحظة كأن جزءًا من الكابوس... لم يزل معي.

* * * *

ركضت مفزوعًا نحو الباب حينما شقّت صرخةٌ مدوّية سكون الغرفة، فتحت الباب بسرعة، فوجدت الخادم صفوت واقفًا في آخر الممر، جسده يرتجف، وصرخته ما تزال محبوسة في حلقه كان يشير بيده المرتعشة نحو الظلام:

"الهوا... الهوا بيشيل حد! في حاجة بتجُرّ مخلوق وراها!"

تجمدت للحظة، ثم اندفعت نحو غرفة أبي أبحث عن أي مصدر للضوء وجدت مصباحًا قديمًا، تشقّ منه شرائح ضوء ضعيفة. خرجت إلى الممر مجددًا، ورفعت المصباح أمامي وهناك توقفت أنفاسي أحد الضيوف كان مرفوعًا في الهواء، قدماه متدليتان، ويدٌ غير مرئية تشده للخلف. كان جسده يلتوي بطريقة مستحيلة... ثم انزلق إلى آخر الممر، قبل أن يختفي تحت الأرض وكأن الأرض ابتلعته.

ثم سمعت همهمة منخفضة... أقرب إلى زفير كيان:

"الوريث... تأخّر."

ارتعد جسدي. ركض صفوت باتجاه غرفة الخدم وهو يبكي ويردد كلمات غير مفهومة، بينما أخذتُ أتراجع ببطء، حتى وصلت باب غرفة أبي. دخلت وأغلقته خلفي بإحكام لم ألتقط أنفاسي بعد ، عندما دوّى على الباب طرقٌ خفيف خافت و منتظم كأن الطارق لا يريد إخافتي، لكنه يعرف تمامًا أنني خائف، نظرت من عدسة الباب فرأيت شابًا صغيرًا، لا يتجاوز الخامسة عشرة، يرتدي جلبابًا أبيض، ووجهه يبدو بشوشًا... غريبًا... مألوفًا دون أن أعرفه وحين اطمأن قلبي قليلاً، فتحت الباب لم أتوقع أن تكون عينه ملتصقة بالعدسة ارتبك كلا منّا، فتراجع خطوة وقال بصوت مرتخٍ:

"خير يا واد عمي؟ سمعت صريخ جاي من ناحيتك كنت بتصرخ ليه؟"

لم أنتظر أن يُكمل سحبته من ذراعه إلى الداخل، وأغلقت الباب بسرعة، ثم قلت له بلهفة شخص وجد شيئًا يتشبث به:

"اسمك إيه؟!"

حدّق في وجهي بصمتٍ غريب، ثم قال ببطء:

"إني أبقَى... حارس واد عمّك كامل."

ابتلعت ريقي.

"تمام... فين أبوك؟ طيب... ممكن تبات معايا الليلة؟"

لم يُجب. فقط أخذ يتلفّت في الغرفة كأنه يتفحّص شيئًا خفيًا، ثم جلس بجواري على السرير بثقلٍ لا يناسب سنّه. رفع الغطاء علينا، ثم استلقى كما لو أنه نام هنا ألف مرة خلال دقائق، كان يُطلق شخيرًا عميقًا، متقطعًا أشبه بأنفاس شخصين لا واحد تمنّيت من قلبي لو أنني لم أطلب منه المبيت معي وضعت الوسادة فوق رأسي لأدفن خوفي ولأغرق في نومٍ لم أعرف وقتها إن كان نجاةً أم بداية شيءٍ أسوأ.

* * * *

استيقظت على رائحةٍ دافئةٍ تسلّلت إلى أنفي...رائحة العيش الشمسي الطازج، تفوح من المخبز الخارجي كأنها تأتي من زمنٍ قديم فتحت عينيّ ببطء، مددت يدي إلى جواري فلم أجد أحدًا، اختفى حارس جلست فَجأة، نظرت حولي في كل زاوية من الغرفة، تحت السرير، خلف الستائر...لا أثر، لم يبقَ سوى عمامته ملقاة فوق الفراش، كأنها علامة تُركت عمداً نظرت إلى الساعة... كانت الخامسة فجراً، البيت ساكن إلا من صوت الطيور الأولى خلف النوافذ فتحت الباب وجدت عمّي كامل واقفًا خلفه مباشرة، يده مرفوعة نحو الخشب كأنه كان على وشك الطرق ملامحه كانت متجمّدة، كأن وجودي المفاجئ أربكه.

قلت بصوت ناعس مازال عالقًا بين النوم واليقظة:

"هو فين حارس يا عمّي كامل؟"

اتّسعت عينا عمّي...واختفى لونه للحظة.

قال بصوت خافت، مضطرب، كمن يخبرني بسر لا يجب أن يُقال:

"حارس؟...يا ولدي ده مات من سنتين كان عنده ١٥ سنة... ودفناه بعدها على طول."

توقّف العالم حولي شعرت بصدري يضيق، وببرودةٍ تزحف على ظهري جحظت عيناي، وبُهتّ، وفقدت القدرة على النطق لثوانٍ ثم خرجت الكلمات متقطعة من بين شفتي:

"بس... إزاي؟ ده... كان نايم جنبي..."

قطّب عمّي حاجبيه، خطوة خفيفة للخلف، وصوته ارتجف:

"بتقول إيه يا أنيس؟"

بلعت ريقي، تراجعت خطوة، ثم تمتمت:

"ولا... ولا حاجة يا عمّي."

سكت لحظة، ثم ربت على كتفي كأنه يخشى أن ينهار عقلي:

"تعالى افطر معانا... العيش سخن ولسّه خارج من الفرن."

أومأت، محاولًا السيطرة على الارتجاف في صوتي:

"ثواني أغير هدومي وأجيلك."

أغلقت الباب خلفي، أسندت ظهري إليه وشهقت نفسًا مرتجفًا كنت أعلم — في قرارة نفسي —أنني قضيت الليل بجوار ميت...ميت عاد من الظلال فقط ليجلس إلى جواري.

* * * *

الغريب أنني عندما دخلت الغرفة مجددا لم أجد العمامة و اختفت هي أيضا كما اختفي صاحبها حارس الذي ظلت صورة وجهه لا تفارقني غيرت ثيابي علي عجل وخرجت من غرفة أبي كان الممر طويلًا وهادئًا كعادته، إلا أنّ شيئًا واحدًا جعلني أتوقف لوهلة بُقَع طين رطب على السجاد انحنيت قليلًا، ولمست بأصبعي طرف إحدى البقع...

كانت مبللة، وكأن أحدهم عبر الممر منذ ثوانٍ فقط.

شعرت للحظة بأن الأرض نفسها تتنفس من تحت قدميّ.

إحساس غريب كأن أحدًا يراقبني من مستوى منخفض جدًا، من تحت الأرض ذاتها ازدادت سرعة خطواتي، لكن خطوات أخرى خفيفة كانت تتبعني وكانت أنفاس باردة تلفّ ظهري كأن شخصًا واقفًا خلفي، يقترب دون صوت.

هبطت السلالم بسرعة، وكدت أن أتعثّر في الدرجة الأخيرة،

لولا يد الخادم صفوت التي أمسكتني بقوة مذهلة.

في تلك اللحظة، علت أصوات صياح الديكة من الخارج، كأنها تعلن شيئًا مجهولًا توجهت إلى طاولة الإفطار الكبيرة.

رحّب بي عمي كامل ودعاني للجلوس أمام الطاولة جلست زوجته وداد، قوية البنية، صامتة كعادتها وبجانبها الطفل عبد الحميد، يلتهم الخبز دون أن يرفع رأسه وعمي صبيح، بخطوط الشعر البيضاء فوق رأسه، ينفخ في كوب الشاي وعمتي رقية بثوب بسيط، وملامح هادئة لا تشبه بأي شكل هذه العائلة ألقيت التحية بصوت واضح:

– صباح الخير.

مرّت ثوانٍ ثقيلة لم يردّ أحد، نظروا لأطباقهم فقط شعرت بوخزة داخل صدري هذا غريب لا أذكر قطّ أن أحدًا منهم تجاهل أحدًا بهذه الصورة، دعاني عمي كامل للطعام قائلاً:

– مدّ يدك وكل يا أنيس.

أومأت برأسي وبدأت أتناول الطعام كانت الطاولة مليئة بأصناف صعيدية أصيلة:

الفول المدمس، الجبنة القديمة، العسل الأسود، الطعمية، شاي بالنعناع، بيض بلدي، خبز شمسي، عسل قصب...

رفعت عيني للحظة دون قصد نحو عمتي رقية لم أُطِل النظر، فقط لمحت كيف يرتفع صدرها وينخفض بهدوء متّزن...وحين شعرت أن نظرتي قد تُفسَّر خطأ، أزحت عيني بسرعة، محاولًا استعادة تركيزي بعد لحظة صمت، توجهت إلى عمي قائلًا بصوت منخفض:

– عمي... الضيف اللي كان متعلق في الهوا واتسحب ناحية الممر... راح فين؟

هنا تجمّد كل شيء الشوكة توقفت في يد وداد، الطفل عبد الحميد أوقف مضغته ونظر إليّ بعينين واسعتين.

صبيح رفع رأسه ببطء، ونظر لي كأنه يسمع اسمي لأول مرة حتى صوت الرياح بالخارج انخفض فجأة والجو صار أبرد... باردًا بشكل غير طبيعي، كأن الغرفة امتلأت بأنفاس شخص غير موجود ثم، وببطء شديد...رفع عمي كامل رأسه تجاهي وقال بصوت جاف:

– مش وقته يا أنيس.

في اللحظة نفسها لمحت رقية ترفع عينيها نحوي بسرعة.

نظرة خاطفة غامضة كأنها تعرف شيئًا لا يعرفه أحد.

وحين نظرتُ إليها مباشرة، أطرقت رأسها فورًا، وكأنها لم تنظر أصلًا بعد انتهاء الطعام، حمل صفوت الأطباق إلى المطبخ وقال عمي:

– قوم نتوضّى ونصلّي الشروق.

صلينا وهو الإمام ثم بعد الصلاة، ناولني بعض الثياب البيضاء وقال:

– تعال معايا على الغيط.

دخلت إحدى الغرف، وارتديت الجلباب الأبيض ثم خرجت معه نحو الغيط...بينما البقع المبللة من الطين ما زالت في ذهني، وكأنها آثار أقدام شيء ليس من البشر.

* * * *

خرجتُ مع عمي كامل نسير في طريقٍ ضيق يشقّ وسط الغيط، كان الضوء قد اكتمل، والشمس ارتفعت قليلًا فوق الأفق، لكن إحساس البرودة الذي التصق بي على مائدة الإفطار ما زال يرافقني كأن شيئًا من ذلك الصمت الميت تبعني إلى الحقول كان عمي يسير أمامي بخطوات ثابتة، يحمل فأسه على كتفه، ويشرح ببرود عن أنواع التربة والقصب، وكأنه لم يكن قبل دقائق في وسط ذلك الجمود المريب وفجأة، قال بنبرة منخفضة هادئة أكثر مما ينبغي:

"مش أنت كنت عاوز تعرف يا أنيس الضيف راح فين؟"

شعرتُ بقشعريرة تسري في ظهري، لم أُجب تابع عمي السير، ثم توقّف دون أن يلتفت إليّ، وقال بصوتٍ أقرب للتهديد منه للشرح:

"تعالى ورايا."

سرت خلفه، حتى وصلنا إلى مكان معزول في قلب الغيط، مكان لا ينبغي أن يوجد أصلًا بوابة كبيرة من السلك الشائك تعلوها طبقة صدأ، فتحها عمي ببطء فأطلقت صريرًا طويلًا كأنه نواح ما إن دخلت حتى شدّني شعور ثقيل بالاختناق في الواجهة فزاعة ضخمة أو ما بدا لي هكذا لكنها كانت منحوتة من جذوع خشب قديم، وجهها بلا

ملامح، وأطرافها طويلة على نحوٍ غير طبيعي أمامها شجرة ميتة جذعها أسود، وأغصانها بلا ورق كأنها محترقةً اقتربنا من الشجرة، وحين نظرت إلى أعلاها... تجمّد الدم في عروقي كان الضيف المفقود معلقًا من قدميه، يتأرجح ببطء أسفل منه حفرة صغيرة تمتلئ بالدماء المتخثّرة، وحولها نباتات ذابلة كأنها مُصابة بعدوى الموت شهقتُ بقوة، وتراجعت خطوة، ثم صرخت:

"إيه ده؟! أنت، أنت إللي عملت فيه كده؟!"

لم يتحرك عمي، كان وجهه جامدًا بلا تعبير واحد ثم فجأة مدّ يده وأمسك رقبتي بقوة، وقرّب وجهي من الجثة حتى أصبح الهواء نفسه ثقيلًا وملوثًا برائحة الحديد والدم قال بصوت منخفض بارد كأنه يشرح أمرًا يوميًا:

"الضيف أدّى مهمته بس كان ضعيف والضعيف لازم يرجع للأرض إللي خرجته."

شعرت بقدميّ ترتجفان ثم أكمل بنبرة لا تختلف عن الموت نفسه:

"في الغيط كل سنة بنعمل طقوس لترضية أهل السرداب اسمها طقس حصاد الصمت والطقس ده معمول للحارس الجديد والحارس الجديد هو أنت يا أنيس."

ثم قال جملة كأنها تُقطع الهواء:

"عشان ما يتأذّوش منك وما تتأذّيش منهم."

شعرتُ بلساني ينعقد لم أقدر على الرد، فجأة أمسك يدي بقسوة، وجرّها نحو الجثة الباردة وقبل أن يضعها، قال بنبرة آمرة:

"هات إيدك."

كانت يده الأخرى تمسك عصا خشبية قديمة تلك العصا نفسها التي كانت في يد الفزاعة وقبل أن أفهم ما ينوي فعله انحنى عمي فجأة، وبدأ يتقدم نحوي على يديه وقدميه حركته كانت خاطئة غير بشرية كأنه شيء خرج من تحت التراب صرخت بكل ما في من قوة:

"أنت بتعمل إيه؟! اِبعد عني يا عمي!"

تراجعتُ للخلف، تعثرت، وسقطت على الأرض العالم بدأ يدور حولي قبل أن أفقد الوعي، رأيت عمي كامل يقترب وابتسامة مرعبة تشق وجهه من الأذن إلى الأذن.

ثم غرق كل شيء في السواد.

*** * * ***

بدأ الوعي يعود إليّ ببطء شديد كأنني أصعد من بئرٍ مظلم فتحت عيني فوجدت نفسي في الغرفة نفسها التي بدّلت فيها ثيابي صباحًا كانتً ثيابي مطويّة بعناية على الكرسي القريب، وكأن أحدهم كان ينتظرني أن أستيقظ.

لكن الشيء الذي شلّ أنفاسي كان العصا الخشبية الطويلة الموضوعة بجوار السرير لم أتذكر اللحظة التي وصلت فيها إلى هنا ولا كيف وصلت العصا إلى جانبي لا أتذكر شيئاً مما حدث سوي ابتسامة عمي كامل المرعبة ..

حدقت في العصا فانطلق من الخشب همسٌ خفيف، متقطع، كأن أحدًا يتحدث من داخل جذع شجرة ميتة، لم أفهم الكلمات لكنها زرعت في صدري خوفًا مبهمًا، خوفًا لا يعتمد على معنى بل على نبرة اقتربت منها خطوة الهمس ازداد وضوحًا، لكنه ظل غير مفهوم ابتعدت خطوة فصار الهمس أعلى، متلاحقًا، كأن العصا تصرخ بي كي أعود وضعت يدي على المقبض لأفتح الباب، لكنه لم يتحرك كان مُحكمًا من الخارج وبينما أستعد لمحاولة أخرى سمعت أصواتًا خلف الباب كانوا يتحدثون لكن ليست لهجة صعيدية، ولا حتى مصرية كانت لهجة غريبة... مقطعة... أقرب إلى لاتينية قديمة مجرد سماعها جعل جلدي يقشعر ثم التقطت أذنـي كلماتهم...وكأن عقلي يترجمها رغمًا عني:

قالت عمتي رقية بنبرة متوترة :

"هو عرف حاجة يا كامل؟!"

وأجاب عمي بنبرة ثقيلة:

"ما أظنش إنه عرف حاجة عن لعنة السرداب بس قريب قوي هيعرف."

تجمدت إحساسي بالخطر ازداد... وصار الهمس الصادر من العصا أشبه باهتزازٍ داخل الجدران، اقتربت منها مرغمًا...

وما إن لامستها بأطراف أصابعي حتى هدأ الهمس قليلًا.

لكن حين فكرت فقط في رميها ارتجّ كل أثاث الغرفة، وانطلقت من الجدران أصوات صرير حاد وضعت يديّ على أذني، لكن الصوت اخترق جمجمتي أدركت حينها أن

يدي اليمني كانت باردة و مغطاة بطبقة خفيفة من الطين الداكن شعرت بوخز مؤلم و غريب فيها عندما أمسكت العصا من جديد فتوقفت الأصوات كلها دفعة واحدة ثم جاء الهمس هذه المرة ليس من الخشب بل من مكان منخفض، كأنه يرتفع من باطن الأرض أو ربما من داخل رأسي كان واضحًا، قويا، كأنه صوت الضيف الميت نفسه:

"أنت الآن الحارس لا تذهب أبداً."

تجمدت أطرافي، وكانت العصا ترتج في يدي كأن روحًا ما تتحرك بداخلها وعندها فقط أدركت الحقيقة المرعبة:

هذه العصا ليست مجرد شيء...

إنها "أداة انتقال الحراسة".

لعنة تنتقل من ميتٍ إلى حي.

وقد التصقت بي الآن...

بشكل لا يمكن فكه.

*** * * ***

أمسكتُ بالعصا جيدًا. كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً، وأتذكّر تمامًا أنّ اليوم هو الجمعة. اندفعت نحو الباب بقوة جنونية، ونجحتُ في فتح المزلاج المغلق.

لكن ما إن انفتح الباب حتى تيبست قدماي عند العتبة؛ حاولتُ تحريكهما، فشعرت بألمٍ مبرح، كأن شرارة كهرباء انطلقت من الجلد البارد الذي لمس الجثة والطين.

تجمّد جسدي، تصلّبت عضلاتي، والرئتان لا تقبلان الهواء خارج الغرفة ازدادت همهمات العصا. وانبعث من خشبها القديم وميض خافت عند حافة العتبة، كأنها ترسم خطًا غير مرئي يمنعني من المغادرة. أحسست أنها تثبّتني تربطني بمكان لا أعرفه مددتُ رأسي إلى الممر الطويل الهادئ هذه المرة رأيت وجه الضيف الميت يتشكّل في الهواء على بُعد أمتار قليلة كأن أحدهم يرسمه بالهولوجرام عيناه كانتا فارغتين بالكامل. حرّك شفتيه، دون صوت لكن التحذير وصل إلى رأسي فورًا:

"لا تحاول ... الحارس لا يغادر ."

قبل أن أستوعب المعنى، انغلق الباب بقوة وارتطم برأسي، لكنني لم أسقط. تراجعت نحو السرير حين أدركت أنني محبوس فعليًا تحرّكت العصا الخشبية تلقائيًا، وكأن يدًا خفية توجهها نحو الجدار المشترك مع الغرفة المجاورة هناك، تحت طبقة ورق الحائط، كان رسمٌ قديم تتخلله شقّ رفيع وضعتُ يدي الباردة عليه، فـ توهّج الشق ثم تحول إلى فجوة مظلمة مددت يدي داخلها فوجدت شيئًا مرتفعًا سحبته كان دفتر مذكّرات صغيرًا. جلست على السرير وفتحته بداخله ورقة مطوية ـــ رسالة من أبي.

قرأتها:

"أعلم أنّ أيامي أصبحت معدودة، خاصّة بعدما حاولتُ كسر اللعنة لإنقاذ ابني الوحيد، أنيس حين علمتُ أن دور أخي كامل انتهى وحان وقت انتقال اللعنة إليك، لتتولّى مهمّة الحارس الجديد للسرداب."

طويتُ الورقة ووضعْتها في جيبي كانت الحقيقة تضربني بقسوة:

أبي كان يعرف، كان الحارس قبل عمي كامل.

وهذه الغرفة كانت نقطة تواصله مع أهل السرداب.

وجدت نفسي متورّطًا في لعنة لا أعرف سببها ولا مصدرها ولا حتى ثمنها.

اضطررت إلى إجراء أول اتصال بالعصا مع ذلك الكيان الذي يحميني أطلقت العصا وميضًا حادًا، تلاه مشهد مروّع:

أبي...الضيف الميت...والحارس...

واقفون جنبًا إلى جنب، في ثباتٍ مخيف. اتسعت عيونهم والتقت نظراتهم بي، نظرات جعلت جسدي يتجمّد تمامًا.

اهتزّت العصا بعنف في يدي حتى سقطت على الأرض،

وتحوّلت الغرفة إلى ظلام كامل ثم فقدت الوعي ..

* * * *

استعدتُ وعيي تدريجيًا كنتُ ما أزال ممددًا فوق السرير، أنفاسي ثقيلة وكأن الهواء نفسه يمرّ عبر جدار سميك فتحت عيني ببطء، فرأيت ما لم أتوقعه...

كانت عمّتي رقية تجلس بجواري على الكرسي الأحمر البلاستيكي نفسه، بملابسها المتواضعة ووجهها الرقيق، ملامحها كانت هادئة لكنها تحمل حزنًا أعمق من ذلك الذي رأيته في الصباح؛ حزنًا كمن يعرف شيئًا لا يستطيع أن ينطق به، مهما حاول مدّت يدها الباردة على جبيني، تمسحه بعناية أمّ تخشى أن تفقد طفلها. حاولت أن أتكلم، أن أسأل، أن أصرخ لكنها وضعت إصبعها بسرعة على فمها، ثم أشارت إلى العصا المستندة إلى جانب السرير، حركة دقيقة كأنها تقول: استخدمها... لكن بطريقة معينة وفجأة، سحبت من تحت الوسادة قطعة فحم صغيرة وقطعة قماش قديمة. بدأت تكتب بسرعة، بسرعة غير طبيعية لامرأة في عمرها. وعندما انتهت، رفعت القماش أمام وجهي، ثم وضعت إصبعها ثانية على فمها...

رسالة واضحة... وصامتة... ومخيفة:

السرداب ليس مكانًا السرداب هو الزمن، العصا هي المفتاح.

لا تدعهم يأخذونها مرة أخرى.

فتحت فمي لأسألها، لكن الباب انفتح بعنف، دخل عمي كامل ما إن ظهر حتى ألقت عمتي القماش أسفل السرير بخفة مذهلة، ثم خرجت سريعًا دون أن تنظر إليّ أو إليه، وكأن نظرة واحدة قد تفضح سرًا لا يجب أن يُكشف لحظة خروجها أدركت شيئًا غريبًا تذكرت رسالتها، نظرتها، يدها المرتجفة على العصا، أدركت أنها ليست ضد العهد كما ظننت، بل ضد كامل وحده.

أدركت أنها لا تحاول إنقاذي أنا، بل تحمي منصب "الحارس" نفسه تحميني فقط لأنني الحلقة التالية لا أكثر لم يكن حُبًا... بل خوفًا من أن يسرق كامل شيئًا لا يحق له غادرت، وتركتني بين حقيقتين متصارعتين...

دخل كامل بخطوات ثابتة، واقترب من السرير نفس الابتسامة الممتدة الهادئة التي رأيتها في الحقل قبل أن أفقد وعيي، مد يده داخل جيبي بخفة مريبة، وسحب مذكرة أبي ارتجفتُ قال بهدوء مخيف:

"أبوك كان ضعيف يا أنيس، كان فاكر إن الحب ممكن يكسر العهد."

صرخت:

"أبويا كان بيحبّني! كان بيحاول ينقذني! وأنت بتضحّي بيا!"

لم يهتم، كأني طفل يبكي على لعبة مكسورة.

جلس بجواري وقال بنبرة المدرّس الذي يحفظ الدرس:

"أهل السرداب هما حماية العيلة من كيان خارجي أقدم وأشرس والحراسة بتتنقل بالدم، من أقوى الذكور أبوك... أنا... وأنت."

تابع:

"الحارس لازم يضحّي بجزء من حياته، من إرادته علشان الحماية تكمل."

كنت أرتجف ليس خوفًا بل صدمة أكمل كامل بصوت قاطع:

"أبوك حاول يحرق السرداب ويكسر العهد فاستنزفوا قوته واتحرق، السرداب ما حصلّوش حاجة فكان لازم يبقى فيه حارس مؤقت ينقل العهد ليك لحد ما ترجع من إيطاليا وانت عارف الباقي..."

رفع العصا... ووضع يده عليها ثم قال بنبرة حادة:

"قدامك اختيارين يا أنيس:

يا إمّا تقبل الحراسة بكامل إرادتك و تحافظ علي العهد و تنقذ العيلة ..

يا إمّا تقاوم زي يحيي وساعتها الكائن الخارجي مش هياخد روحك بس، ده هيمحي العيلة كلها من التاريخ."

اقترب ببطء شديد وفي يده العصا قبل أن أصرخ...

فاجأني بضربة عنيفة على رأسي سقطتُ في الظلام وصوته يتلاشى وهو يغلق الباب بالمفتاح وابتسامته تمتد، تمتد كأنها آخر شيء يريد للعالم أن يراه.

* * * *

استيقظتُ والساعة تشير إلى الثانية عشرة تمامًا.

لم يكن الليل ليلًا عاديًا؛ كان أثقل، أطول، وكأن الزمن نفسه يتمدد داخله صداع حاد ينهش جمجمتي، وبقع دمٍ داكنة على الوسادة من أثر ضربة العم كامل تنفّست بعمق، ثم قلت بصوت خرج هزيلاً لكنه مسموع:

"أنا أقبل... أنا الحارس."

كان مجرد نطق الجملة كافياً لتجري قشعريرة كهربائية عبر ساعدَيَّ العصا انتفضت في يدي كما لو أنها تعيش، ثم انطلقت منها حرارة باردة غريبة أشرت بها نحو الباب فانفتح ببطء، رغم أنه مقفول بالمفتاح من الخارج.

لكن حين حاولت وضع قدمي خارج العتبة، ارتد الألم الكهربائي أضعاف ما شعرتُ به من قبل كأن العهد يمسك بقدمي ويغرسني في الأرض بينما كنت أحاول التحرك، ترددت في الهواء همسة طويلة ممتدة، همسة يعرفها قلبي قبل عقلي:

"حارسُنا بقى أقوى، تعال عند قاعة الاستقبال هناك نحدّد مهمتك الأولى..."

كان صوت صبيح، لكن ليس صوته الذي أعرفه..كان شيئًا أعمق، وكأنه مخفي داخل الجدران أدركت حينها أنهم يعرفون و يراقبون كل تحركاتي ..كان الباب مفتوحاً، لكن العتبة كانت تمثل جداراً غير مرئي. حاولت أن أدفع قدمي خارج الغرفة، لكن الألم الكهربائي عاد أقوى من ذي قبل، مسمراً قدمي في مكانها. العصا في يدي ارتجفت، كأنها تثبت حدودي.أدركت الحقيقة أن القوة التي اكتسبتها بالقبول لم تمنحني الحرية، بل منحتني القدرة على العمل ضمن شروط العهد.بدأت أتحرك. لم أكن أستطيع السير بشكل طبيعي. شعور الدفء والحياة كان مقتصراً على حدود الغرفة؛ وبمجرد أن عبرت بجسدي فقط دون قدمي إلى الممر، شعرت وكأن وزني ازداد فجأة، وكأن هناك جاذبية مفرطة تسحبني نحو الأرض.

استخدمت العصا كدعامة، وبدأت أزحف بشكل مشوه على ركبتي وقبضة يدي الباردة. كان الأمر مؤلماً، ولكني كنت أتحرك. كان هذا هو ثمن الحراسة.الممر الطويل الهادئ لم يعد هادئاً. كانت خطواتي المجهدة تصدر أصوات صرير واحتكاك مع السجاد. رفعت رأسي بصعوبة بالغة.

رأيت الظلال.كانوا هناك، متوزعين ببطء على طول الممر، كل واحد منهم يمثل نقطة مراقبة باردة:

وداد كانت تقف عند نهاية الممر، كأنها تمثال قوي، عيناها تراقباني بتركيز بارد.

عم صبيح كان يقف عند أحد الأبواب، يديه مطويتان، يهز رأسه ببطء، وكأنه يرى عرضاً مألوفاً ومخزياً.

حتى صفوت الخادم، كان يقف عند زاوية السلالم، يده على فمه، ينظر إلي بمزيج من الشفقة والرهبة.

لم يتفوهوا بكلمة. صمتهم كان أقسى من أي صراخ. كانوا يراقبون حركتي البطيئة والمشوهة، يؤكدون لي أنني سجين يتم استعراضه ببطء نحو قدره كانوا يعاملونني وكأنني جسد جديد يُختبر لأول مرة.كل زحفة كانت تزيد من الصداع، لكنها تزيد أيضاً من تدفق تلك القوة الغريبة في يدي كانت الهمسات تصدر من العصا بشكل منتظم الآن، ليست مخيفة، بل تعليمية. كانت توجهني، ترسم لي المسار، تدفّق من العصا صوت آخر... ليس همسًا هذه المرة، بل إرشادًا:

"تعلّم الحدود... فالحدود هي قوتك."

بعد ما بدا وكأنه دهر، وصلت أخيراً إلى قاعة الاستقبال الكبيرة.كان العم كامل يجلس في المنتصف، على كرسي خشبي كبير، كأن العرش صُنع له وحده يده اليمنى فوق مسند الذراع وأمام قدميه مذكرة أبي موضوعة بعناية، كأنها شاهد قبر حين عبرتُ عتبة القاعة، خفّت الجاذبية فجأة تمكنتُ من الوقوف، مستندًا على العصا، محاولًا ألا أُظهر الارتجاف الذي ينهشني رفع العم كامل رأسه...

ابتسامته كانت نفس الابتسامة التي رأيتها قبل أن أفقد الوعي:

ابتسامة رجل انتصرت خطته أخيرًا.

نظر العم كامل إلي، إلى الطين الذي علق بملابسي، وإلى العصا في يدي، وقال بصوت واضح ومهيب:

"كويس يا أنيس... إنك وصلت هنا، الحارس بيبدأ مهمته الأولى."

ثم أمسك بالمذكرة، ورفعها ببطء شديد كأنه يرفع شيئًا أثقل من الورق وأضاف بنبرة باردة، قاطعة:

"مهمتك الأولى بسيطة، اكسر ما تبقى من ذاكرة أبوك حتى لا تفسد العهد ."

* * * *

أمسكتُ العصا بكل قوتي، رغم أن داخلي كان يرتجف كأنه ينشقّ نصفين رفعتها نحو المذكرة لأحرقها، لكن العصا بدأت تهتز هزة قوية غير طبيعية، ثم انزلقت من يدي وسقطت على الأرض وفي لحظة خاطفة تمددت وتحوّلت إلى كوبرا ضخمة، ارتفعت أمامي كجدار حيّ، وانكمش الجميع في الخلف بخطوة واحدة وقفت الكوبرا بيني وبين المذكرة، لم تهتز، لم تتراجع—كأنها تعرفني أكثر مما أعرف نفسي اقتربتُ منها، رغم أن روحي كانت مشروخة، فلدغتني في يدي بقوة، لدغة تحمل غضبًا قديمًا... غضب أبي نفسه لكني أصررت على حرق المذكرة.

ومع المحاولة الأخيرة، انقضّت عليّ الكوبرا ولدغتني بعنف لم أشعر بمثله في حياتي دارت الدنيا حولي حلقةً بعد حلقة ثم سقطت اسودّ كل شيء وحين انقشع الظلام، وجدت نفسي في السرداب الأرض باردة حد الألم، ورخامها يشبه جلدًا ميتًا سمعت صوت الباب يُفتح من بعيد رأيت أبي، يحيي الغنامي، ينزل الدرج بخطوات متوترة، يلتفت خلفه كمن يتوقع أن يُسحب من ظله.

في يده چركن أبيض، وفي جيبه مذكرة صغيرة.

جلس على أول درجة، أخرج المذكرة، وكتب آخر كلماته:

"أعلم أن أيامي أصبحت معدودة خاصة بعدما حاولت كسر اللعنة لحمايتك، يا أنيس حين علِمتُ أن دور كامل انتهى، وحان انتقال اللعنة إليك... عرفتُ أنني يجب أن أسبقها سامحني يا ولدي، لقد فعلتُ كل ما استطعت.

والآن... أنا في طريقي لحرق السرداب.

والدك: يحيي الغنامي."

فتح چركن البنزين، وصبّه حوله، ثم ألقى الولاعة اشتعل المكان كله، لكن السرداب لم يحترق ركض والدي على السلالم بسرعة لا تشبه البشر، حتى وصل للدرجة الأخيرة وهناك تعثّر، كأن يدًا خفية أسقطته عمداً.

اشتعلت قدماه، ثم ساقاه، ثم جسده كله، صرخ وهو يخرج من السرداب محاصرًا باللهب وهناك، في النهاية وقف كامل كان كامل يضع يده فوق صدره، يتأمل احتراق أخيه ببرود حجري لم يتحرك... لم ينطق.

وحين أوشك أبي على السقوط، ركله كامل بقدم ثابتة، فسقط مجددًا داخل السرداب أغلق الباب عليه، وانتظر.

وحين صمتت الصرخات، فتح الباب ليجد أبي قطعة فحم وفي غمضة عين، عدت إلى قاعة الاستقبال كنت لازلت ملقى على الأرض، عاجزًا، لكنني شعرت بهم جميعًا.

صبيح مذهول وداد ترتجف كأنها على وشك الانهيار.

صفوت يتمتم بكلمات مبعثرة أما كامل... فكان يستمتع بكل ذبذبة ألم في جسدي نفس المتعة التي ظهرت في عينيه حين شاهد أبي يحترق وفجأة تحوّل الثعبان إلى طيف أبي الحقيقي لكن الطيف كان مكسورًا: نصفه محترق، والنصف الآخر نور.

قال بصوت ينزف:

"لا تقطع أخر ما تبقي منك."

ثم اختفى وعرفتُ حينها...المذكرة ليست ورقًا إنها جزء من الحارس... جزء مني دخلت في انهيار حاد بدأت أتلوي على الأرض، والزمن يتآكل حولي، كأن وجودي يتفتت طبقة بعد طبقة ظهرت نسخة مني، نسخة بديلة، تقف بجانب العصا زحفتُ نحوها، رغم أن كل شيء بدا بعيدًا عني شعر كامل بأن العهد يهتز قفز من مقعده وركض تجاهي، صوته يضرب الجدران:

"قوم! اقطع المذكرة حالاً!"

استعدت وعيي دفعة واحدة، ونهضت مستندًا على العصا.

صرخت فيه:

"لأ... دي آخر حاجة سابهالي أبويا!"

ارتج زجاج النوافذ، سقطت الصور، أُغلقت الأبواب من تلقاء نفسها، انطفأت الأضواء واحدة تلو الأخرى، كأن الغرفة تحتضر، قال كامل بنبرة ميتة:

"أنت زي أبوك... نفس الضعف إللي كان هيضيعنا كلنا."

ركضت رقية نحو المذكرة، مزقت الورقة الأخيرة... لكنها لم تستطع محو ذاكرة أبي بالكامل، بل لوّثتها، تحولت ذاكرة أبي إلى قوة مظلمة اندفعت داخل دمي سمعت صوتهـــلكن ليس صوته الأبوي بل صوت حارس محروق، يريد إصلاح ما انهار :

سأظل بداخلك دوماً..

فقدت جزءًا من إنسانيتي لكنني أدركت أنني أصبحت أقوى، أخطر، وأعمق من كامل نفسه، عاد كل شيء لطبيعته، وغادروا جميعًا نحو غرفهم أمّا أنا فاتكأت على العصا، وتحركت ببطء نحو غرفتي..

* * * *

دخلتُ الغرفة، وكان الصمت كثيفًا كأنه ينتظر حدثًا أكبر مني. اقتربتُ من المرآة... لكنني لم أرَ انعكاسي وجدتُ انعكاس حارس ابن عمّي هو الذي يحدّق بي من داخل الزجاج كان واقفًا بثبات، يرتدي عمامته القديمة، مرتديًا نفس ثيابي، والابتسامة نفسها ابتسامة ممتدّة وميتة تشبه ابتسامة عمي كامل، وتشبه تلك التي — دون أن أدري — بدأت تمتد على شفتيّ أيضًا في تلك اللحظة عرفت بأنني لم أعد أنا، لقد أصبحتُ وعاءً جديدًا لروح الحارس القديم، وأن كيانه الآن يتقاسم جسدي قطعة قطعة رفعت يدي... لم أكن أنا من يرفعها كنت أسمع صوتي يصرخ داخلي لكن فمي لم يتحرك التقطتُ العصا بشكل لا إرادي، وبدأتُ أتحرك نحو الخزنة المخفية داخل الجدار... أبحث عن وثيقة، صورة مهمةٍ لم أعرفها، لكن جسدي يعرفها جيدًا تردّد وقع خطوات صغيرة خلفي.

دخل عبد الحميد، ابن عمّي كامل لم يكن يأكل الخبز هذه المرة، وقف في منتصف الغرفة، يحدّق بي بنظرة جامدة، كأن طفلًا بعيون ليست عيون الأطفال كانت نظرته طويلة باردة تحمل شيئًا أكبر من سنه، وكأن روحًا أخرى تقف خلف عينيه ثم انحنى ببطء شديد وقال بصوت طفل يخرج منه نبرة رجل عجوز عاش قرونًا:

"أهلا بك يا حارسنا الجديد... أهل السرداب ينتظرون."

* * * *

خرج عبد الحميد بعد أن أذنتُ له بالمغادرة وما إن أغلق الباب خلفه حتى عاد الصمت الكثيف يخيّم على المكان ثم سمعته... صوت بكاء مكتوم، يأتي من أسفل الأرض نفسها، كأن شخصًا يُدفَن حيًّا تحت الغرفة بحثتُ سريعًا عن مصدر الصوت، وحين وضعتُ العصا على الأرض لأختبر اهتزازاتها، شعرتُ بها ترتجّ بقوة ثم انفجرت عدة بلاطات من تحت قدميّ، وانكشف باب خشبي صغير، وخلفه ممر خفي يقود مباشرة إلى باب السرداب القديم في تلك اللحظة سمعتُ صوت الخادم صفوت... صوته كان مرتجفًا، متلعثمًا، وكأنه لا يريد حتى أن ينطق بالكلمات:

"أهل السرداب... ما بيحبّوش الغُربا... ولا حتى من دمّكم..."

لكنني تجاهلته، لم يكن ذلك شجاعة بل فضولًا قاتلًا... فضولًا ينتصر دومًا دخلتُ الممر كان طويلاً، ضيقًا حدّ الاختناق، والجدران كأنها تتحرك على جانبيّ، تضيق أكثر فأكثر الهواء منعدم، يقطع الأنفاس رفعتُ العصا، فانبعث منها نور أحمر وأزرق وفضي يختلط مع بعضه، يرتجّ كنبض قلب ليس قلبي وصلتُ إلى نهايته باب خشبي كبير، فتحته فصدر منه صرير حاد شقّ رأسي نصفين.

خلف الباب سلالم بلا نهاية وضعت قدمي على أول درجة ثم اندفعت بي العصا بقوة لا أستطيع مقاومتها، كأنها تسحبني إلى مصيري.وحين وصلت إلى أسفل السلم...

اتّسعت عيناي ليس خوفًا بل ذهولًا كانت هناك أضرحة سوداء ضخمة، مفتوحة على آخرها تقدّمت نحو أحدها فرأيت الجثث ليست محنطة، ليست طبيعية، أجساد مفلطحة مشوّهة، ملامحها غير مكتملة، كأن نحاتًا بدأ تشكيلها... وتوقف فجأة، تاركًا إياها نصف بشر، نصف شيء آخر وفي أحد الأضرحة لم تكن هناك جثة بل كانت مرآة فضية ضخمة، قديمة، محفورًا على إطارها نقوش قبطية تمثل عيونًا مفتوحة لا ترمش وحينها رأيته عمي كامل كان في نهاية السرداب، واقفًا بثبات غير بشري، كأنه كان يعلم أنني سأصل وحدي كان يحدّق بي...

في عينيه خليط غريب:

قلق شديد... وسعادة خفية قلق لأن قوتي أصبحت أكبر منه وسعادة لأن عبء الحراسة أخيرًا انتقل إلى غيره اقتربتُ من المرآة التقطتها وفجأة صرخ عمي صرخة مكتومة، هي أول صرخة خوف حقيقية أسمعها منه كانت عيناه تتسعان... تقولان كل شيء دون كلمة.

ابتسمتُ نفس الابتسامة التي كان يبتسمها هو حين كان الحارس الابتسامة الممدودة... التي لا تنتمي لإنسان، تراجع عمي للخلف حتى التصق بالجدارثم رفع إصبعه ببطء شديد وأشار خلفي التفتُّ نحو المرآة وفي انعكاسها ظهر خلفي ظل طويل مشوّه يقف كجدار بيني وبين الخروج رفعت العصا نحوه، فانحنى الظل ببطء وتراجع عن الطريق حينها فقط أدرك عمي كامل أن جزءًا من قوتي مرتبط بهذه العصا، وأن ما أمامه ليس أنيس الذي يعرفه ركض عمي نحو الدرج، لاهثًا، يترنح من الرعب.

أمسك بذراعي، يشدّني بقوة، وكأنّه يخاف أن أغيب في السرداب، خرجنا معًا نعبر الممر الضيق، أنا في المقدمة، وهو خلفي—يرتجف، يتنفس بصعوبة حتى وصلنا إلى الغرفة نفسها من جديد.

* * * *

الفصل الثالث : الحقيقة المؤجلة

كان الجميع نائمًا سحبني عمي كامل من يدي، ووضع إصبعه على فمه يشير للصمت عينيه كانتا مضطربتين كأنه يخشى حتى أنفاسه، خرجنا من الغرفة بخطوات بطيئة، وأنا متكئ على العصا، كأنها وعي آخر يجرّني.

كنا نتحرك في الظلام، نمر بالغرف المغلقة:

السائق محروس، الخادم صفوت، عمتي رقية، عمي صبيح، عبد الحميد ووداد زوجة عمي كامل، كلهم غارقون في نومٍ ثقيل، وكأن القصر نفسه يخدّرهم حتى لا يسمعوا ما سيقال فتح عمي باب القصر ببطءٍ، كي لا يُصدر صريرًا واحدًا الهواء الليلي كان باردًا، له رائحة التراب المبلل، وكأن الأرض تعرف أننا مقبلون على سرّ لم يُفتح منذ زمن سِرنا حتى وصلنا إلى الحقل، إلى المكان نفسه الذي رأيتُ فيه "الضيف" معلقًا على الشجرة هناك توقّف عمي، وأشار بإصبعه نحو الأرض، فجلستُ معه تحت الشجرة الميتة، فوق نباتات صغيرة ذابلة كأنها تموت كل ليلة وتعود لتذبل من جديد تنفّس عمي كامل ثم قال بصوت منخفض، وكأنه يرمي حملًا عاش معه سنوات طويلة:

"أهل السرداب... هما الأحفاد الحقيقيين لعيلة الغنامي من آلاف السنين..."

سكت قليلًا، ثم أردف:

"في واحد من الأضرحة جدي الكبير، جابر الغنامي، اتدفن حيّ ظلم أخوه طلع عليه إشاعة إنه اتجوز من جنّية أبوه ما استحملش الكلام قفل عليه الضريح من غير أكل ولا شرب وهو متكتّف وكل ده وهو بيصرخ ويقسم إن أخوه بيكدب."

كان صوت عمي يرتجف، وكأن روح الجد المدفون حيًّا ما زالت تصرخ في دم العائلة.

"قبل ما يموت... قبل ما السر الإلهي يطلع... صرخ بلعنة وقال:

ستدفنون كما دُفنت وإن أردتم الخروج، فاخرجوا بغيركم."

بلعت ريقي الشجرة الميتة فوق رؤوسنا بدأت تحرّك أغصانها كأن أحدًا يمر بينها أكمل عمي بنبرة محطّمة:

"اللعنة اتنقلت وبقت تقاليد والعيلة إللي فوق الأرض بقت مجرد أوعية بشرية وكل حارس لازم يقدم جسد جديد من فترة للتانية عشان يعيش أهل السرداب عبر التلبّس الجسدي."

التفتّ له بصدمة:

"طب والقصر؟!"

هزّ رأسه، وكأنه كان ينتظر سؤالي:

"القصر ده قصر العيلة الريفي من العهد العثماني تحديدا القرن الثامن عشر الناس كلها فاكرة إن السرداب بس مدفن الأجداد لكن الحقيقة إن الأجداد الحقيقيين مش فوق، ولا في الصور دول تحت في السرداب من ٣٠٠٠ سنة والسر محفوظ."

ثم أكمل وهو ينظر للأفق:

"كل جيل... يختار حارس جديد:

جدي...أبوك...أنا...وآخرهم... أنت يا أنيس."

كان في صوته شيء يشبه الاعتراف الأخير قبل الموت.

ثم قال بنبرة مكسورة:

"أنا ماعرفتش أسيطر على دوري كحارس... فقتلوا أختي سمية كانوا أقوى منّي...وماقدرتش أحميها."

تجمّدتُ شعرت بشيء ثقيل يضغط على صدري نهض عمي من مكانه، وانحنى نحو جذور الشجرة، يحفر بيديه كأنه يعرف الطريق دون تفكير، ثم أخرج وثيقة جلدية قديمة، ملمسها خليط من جلد التماسيح والثعابين والثعالب... شيء لا يصنعه بشر فتحها أمامي ووضع إصبعه على فمه من جديد، كأنه يخاف أن يسمعنا أحد...

ليس من البشر بل ذلك الكيان الذي يراقب الحراس دائمًا كانت الكلمات محفورة بالأظافر على الجلد، لا مكتوبة:

أهل السرداب قبيلة كاملة عاشوا تحت الأرض منذ ٣٠٠٠ عام دُفنوا ظلمًا لكنهم لم يموتوا تكيفوا ضعفت أعينهم أمام الضوء خفتت عظامهم صار جلدهم شفافًا واحتاجوا أجسادًا سطحية ليعيشوا فوق الأرض.

ثم السطر الأشد رعبًا:

العائلة فوق الأرض...كانت دائمًا مخزنًا بشريًا لهم.

رفعت رأسي نحو عمي...كان يبكي بصمت، والدموع تلمع على خده، كأنه يرى كل من مات من العائلة يعود أمامه الآن.

* * * *

أشار عمي كامل إلى نهاية الوثيقة...لم تكن هناك كلمات أخرى، فقط نقشٍ غائر يشبه بصمة يد مشوّهة، منقورًا كأنه محفور بأظافر كائن عاش في الظلام طويلًا.

قال عمي كامل بصوتٍ شبه مفقود، كمن يختنق:

"ده ختم الدم...لازم تحطّ إيدك الباردة عليه علشان ما تموتش زي ما ماتت سمية."

ترددتُ لحظة، لكن شيئًا ما أقوى مني دفع يدي وما إن لامستُ النقش البارد حتى شعرتُ بوخز عنيف اخترق كفي اليمنى سقطت العصا من يدي بقوة، وارتطمت بالأرض مُطلِقة صرخة خشبية خافتة كأنها تتوجع أو تحذر ثم...

شيء ما حدث لجسدي، جلدي أصبح شفافًا للحظة واحدة.

رأيتُ عظام يدي تحت الجلد هشة، كأن قوة حياة تُسحب من داخلي وكأن جزءًا مني يُعاد كتابته ليتناسب مع عالمهم تحت الأرض، اتسعت عيناي الغائرتان في رعب حقيقي حينما ارتفعت الوثيقة الجلدية في الهواء، تهتز كأن بداخلها أنفاسًا متجمعة عبر الزمن ثم خرجت منها رائحة عفنة، رائحة جسد مدفون يتحلل منذ عقود.

وفجأة تغيّر صوت عمي كامل لم يعد مبحوحًا، ولا مضغوطًا صار واضحًا... نقيًا... حرًا فهمتُ ما يحدث.

صرخ بمرح مجنون، وقفز في مكانه كطفل هارب:

"أنا اتحرّرت! إهرب يا أنيس! الكيان الأول... الوقت في جسمك! استخدم العصاية... اكسره قبل ما يسيطر عليك!"

لم أتحرك ليس لأنني لا أريد، بل لأن جسدي لم يعد جسدي شعرتُ بطرف لساني يصبح باردًا... جافًا...

ثم تصلّبت حنجرتي بالكامل، نظرت إلى عمي كامل، لكن النظرة التي خرجت من عيني لم تكن نظرتي كانت نظرة جابر الغنامي نفسه الجدّ الأكبر المدفون حيًّا...

النظرة العطشى للدم التي حُفرت على الوثائق وعلى لعنة العائلة، صرخ عمي كامل مجددًا، فعادت نظرتي الطبيعية للحظة...لكن الأرض تحتنا بدأت ترتجف، شقوق رفيعة جدًّا بدأت من تحت جذور الشجرة وتمدّدت نحوه ببطء قاتل، وكأن الأرض تختاره ثم حدث ما لم أستطع استيعابه:

رأيت داخل الشقوق أجزاء من جسد سمية كانت يدها ممدودة، خارجة من الطين كأنها تبحث عن شيء، أي شيء... تتشبث به صرخ عمي كامل محاولًا الرجوع، لكن الطين المبلل تشكّل حول قدميه كأصابع تمسكه ثم خرجت من الشق يد مشوهة...ليست يدًا من أهل السرداب، بل يد العمة سمية الغاضبة، وقد تحولت ملامحها لكتلة انتقام صامت أمسكت بكاحل عمي بقوة جعلته يصرخ صرخة لم أسمعها منه من قبل:

"خذ العصا يا أنيس! اضرب الأرض! حررني يا أنيس!"

انحنيت بسرعة، التقطت العصا، وضربت الأرض بقوة جعلت الهواء يصرخ حولي ثم استخدمتها لصدّ يد سمية الميتة...حينها فقط أدركت أن الحراسة لا تبدأ بأهل السرداب...بل تبدأ بمواجهة الموتى الغاضبين من دم الغنامي نفسه، الأرض في الحقل كانت تميد تحت قدمينا، ترتفع وتنخفض ككائن يتنفس في الظلام ركضنا بأقصى قوة، اندفعنا نحو القصر، وأغلقنا الباب خلفنا قبل أن تلمسنا يد سمية التي خرجت بالكامل من الشقوق ثم أسرعنا نحو الغرفة...والصمت خلف الباب لم يكن صمتًا عاديًا،

بل صوت عالم كامل يحبس أنفاسه توقعًا لعودتنا... أو سقوطنا.

* * * *

بمجرد أن أغلق عمي كامل باب الغرفة خلفنا، انهرتُ على الأرض لم أفقد الوعي... لكن حدث شيء مرعب لم أكن أتخيّل أنني قادر على تحمله بدأ جسدي يتشنّج بعنف—تشنّجات كأن أحدًا ينتزع روحي من مكانها ويغرس فيها روحًا أخرى كنت أشعر بوعي كامل... لكني غير قادر على إيقاف شيء كان جدي جابر الغنّامي—العائد الحي—يحاول السيطرة على جسدي كما لو أنه منزله القديم لساني بدأ ينتفخ، وتصلّبت عضلات فمي، ثم خرج مني صوت بلغة لاتينية قديمة... اللغة السرية للعائلة، تلك التي استخدموها حين أرادوا إخفاء جرائمهم وطقوسهم عن البشر، رفعتُ يدي دون إرادتي نحو الأرض ركع عمي كامل فورًا... بهلعٍ مطلق لم أكن أنا من ينظر إليه... كانت

نظرة جدي: قاسية، متعالية، ثابتة، كأنها نظرة ميت يستيقظ ليحاسب أحياءه قلت بصوت ليس صوتي:

"كامل... لقد خنتني حين أطلقتَ سراحك. أين العمامة؟!"

اتّسعت عيناي حدّ الجحيم، نظرة تحذير ليست مني أجبرها جابر على أن تخترق كامل حتى يعترف ارتجف عمي كامل كالورقة وقال باللهجة اللاتينية نفسها، وهو بالكاد يرفع رأسه:

"العمامة هي المفتاح مثلما قالت رقية، مخفية في مكان ما تقدرش توصله يا جابر...مكان ما يعرفوش غير الأحياء يا جدي."

ما إن حصل جابر على ما يريد، حتى شعرت بقشعريرة باردة تنسحب من جسدي كأن أحدهم انتزع يده من داخلي عاد بصري شيئًا فشيئًا وعندما عاد، رأيت عمي كامل مطروحًا على الأرض، جسده يرتعش بشدة لكن الرعب الحقيقي لم يكن فيه بل في تعطشي، تعطشي الغريب، تعطشي لشيء بارد، رطب، لا يشبه الماء ولا الطعام نظرت إلى كفي الأيمن، رأيت الطين العالق من الحقل يتوهّج على جلدي البارد توهجًا خافتًا كأن به حياة صرخ عمي كامل بصوت مرتجف لكنه خبيث:

"لازم تستغل الفرصة يا أنيس! جابر الوقت جواك... ولو وعيك راح مش هيرجع تاني كلّ من الطين إللي عالق في إيدك من حافة الترعة وإلّا هيسيطر عليك للأبد!"

شعرت أنني أمام خيارين:

أن أفقد عقلي... أو ألتهم هذا الطين المقزز اضطررتُ لذلك.

ألصقت لساني على الطين... طعم بارد، معدني، كأنه شيء خرج من قبر رطب وبمجرد أن ابتلعته، بدأت الكلمات تتحشرج في حلقي، ولساني يتصلّب داخل فمي وحين نظرت لعمي كامل... أدركت الحقيقة؛ كان يخدعني أو يستخدمني أو يخطط لشيء أكبر من قدرتي على الفهم.

رأيت يده تنزلق نحو جيبه، يمسك شيئًا صغيرًا ـــورقة؟ مفتاح؟ طلسماً؟ـــكان يخفيه منذ البداية أدركت أنه كان ينتظر اللحظة المناسبة ليهرب وأن الوثيقة الجلدية كانت مجرد وسيلة لإلهائي خرج من فمي صوت جدي جابر المتحشرج، رغم مقاومتي:

"مش هسيبك... يا كامل..."

حاول عمي الهرب، لكنني قبضتُ على قدمه بقوة.

صرخ، ثم ركلني بقسوة في وجهي، فسقطتُ على الأرض عاجزًا تمامًا، انطلق خارج الغرفة مسرعًا وهو يلهث، أخذ العصا معه، ثم أغلق الباب من الخارج. سمعت صوت القفل يدور بثبات ببرود وبينما بدأت الظلمة تتقدم نحوي، سمعت ضحكته المرعبة تتردد في الممر ضحكة كأنها لا تنتمي لرجل بل لشيء آخر كبر بداخله منذ سنين.

* * * *

بدأت أفكر و أنا في خلوتي بعد كل الأيام التي قضيتها في قصر الغنامي، بدأت ألاحظ شيئًا غريبًا في عمي كامل.

شيئًا لم أستطع وصفه في البداية، لكنه كان هناك، يتضخّم يومًا بعد يوم عمي كامل لم يعد حيًا بالكامل.

لا ينام لا يأكل إلا لقيمات صغيرة، كأنه يتظاهر بالحياة فقط جلده صار باهتًا مائلًا للزرقة وكأن الدم لا يصل إليه لكن الأغرب أنه يختفي كل ليلة قبل منتصف الليل بدقائق، ويعود بعدها بساعة أو اثنتين، والـ رطوبة القديمة تنضح من ثيابه... رائحة تشبه غرف المدافن رائحة شيء دُفن ثم خرج كنت أراه أحيانًا واقفًا في الظلام، يتنفس بصعوبة...وكأنه يحاول إخفاء شيء يتحرك تحت جلده.

أتذكر جيدآ أنني حينما ... سألته:

"أنت كنت بتنزل السرداب لوحدك... صح؟"

التفت إليّ ببطء شديد، عينيه لم تكونا مثل عيون البشر.

كان فيهما انعكاس أو ظل أو شخصٌ آخر ينظر معي.

ابتسم ابتسامة مكسورة، وقال بصوت متعب كأنه قادم من قاع البئر:

"كانوا عايزين نجدد الدم..."

ثم اقترب مني خطوة، خطوة واحدة فقط... لكنها كانت كافية لأشعر بالبرد يخترق عظامي.

"وأنا... كنت بديهم إللي عايزينه."

قالها بلا ندم، بلا خوف، بلا روح وكأن شيئًا ما في السرداب شيئًا أقدم من العائلة كلّها كان هو الذي يتكلم من خلاله.

* * * *

الفصل الرابع : المرآة الكاشفة

بعد فرار عمي كامل، زحفتُ ببطء شديد نحو الجدار المشترك، نحو المكان نفسه الذي اكتشفت عنده رسالة أبي حاولت أن أهمس لكن حنجرتي كانت ما تزال متصلّبة من طقس الطين خرج صوتي أشبه بنفَس مقطوع لا بالكلام وضعت أذني على الجدار، أحاول التقاط الهمسات التي أعرف أنها تسري بداخله مثل نبض حيّ.

كان الجدار باردًا كأنه يستمع لي مثلما أستمع إليه.

عندما أدركت أن اللغة العادية لن تنفع—ولا حتى اللاتينية—حاولت استدعاء اللغة السريالية اللغة التي لا يفهمها كامل خرج النداء... بصعوبة...كان صوتًا مزدوجًا؛ طبقتي أنا الضعيفة... ثم طبقة جابر الغنامي وهي تعلو، تلتهم صوتي كما لو كانت تخرج من جوفي لا من فمي:

«أيتها التي تعرفين الزمن...العمامة... العصا...ساعدي الحارس...»

لم تُجبني رقية هذه المرة لكن النقش الغائر... بصمة اليد المشوّهة على الجدار...بدأ يتوهّج ببطء ضوء خافت... لكنه نابض كقلب كائن ينتظر ثم جاء الصوت صوت امرأة تبكي نحيبٌ متقطع، مختنق، لا يشبه صوت البشر وكأنه صادر من قاع السرداب نفسه كان البكاء مرعبًا لأنه لم يكن ترجمة لكلام بل طاقة تندفع خارج الجدار بعد أن انقطع النحيب، جاء صوت رقية أخيرًا هامسًا، متعبًا، لكن واضحًا:

«المفتاح ليس للهروب...المفتاح للحارس الذي سيسيطر عليك قريبًا العمامة في المكان الذي تتذكر فيه الموسيقى.»

* * * *

انزلق مفتاح صغير تحت الباب لم أعرف هل هو مفتاح السرداب أم باب آخر، أم فخّ لكنني زحفت وفتحته.

نزول السرداب خرجت إلى الممر الضيق الممر الذي كان دائمًا أشبه بجرح قديم في جسد القصرفي نهايته الباب الخشبي العملاق كان مفتوحًا جزئيًا، وكأنه كان ينتظرني منذ زمن بعيد اندفع من داخله هواء بارد رائحة طين قديم، رائحة موت رطب، نزلت الدرج درجة وراء درجة...

وجسدي يتحرك بسرعة مائلة، كأن روح جابر ما تزال توجه خطواتي وعندما وصلت إلى قاع السرداب، رأيت الأضرحة المفتوحة وأولِ ما لفت نظري كان ضوءًا أبيض يخرج من مرآة بنقوش قبطية الضوء كان قويًا نافذًا كاد يخترق عيني اقتربت منها وحين أمسكتها، اهتزّت الجدران ثم بدأ الكابوس الحقيقي:

المرآة لم تكن تعكس وجهي بل تعكس الشكل الحقيقي لأهل السرداب ظلال سوداء بلا ملامح بلا عيون تتشبث بالأجساد مثل طفيليات تسكن العظام لكن الأغرب أن المرآة عكست ما بداخلي أنا عكست الصراع بين روحي وروح جابر عكست الحقيقة:

القوة ليست في العصا ولا في العمامة بل في الروح الأصلية الإنسان نفسه.

ثم سُمع صوت حركة ضريح في آخر الممر جثة تتحرك من مكانها تفتح عينًا واحدة تنطق باسمي بصوت بارد كالموت:

«أ...نيـ...س...»

كان هو الجد الأكبر، جابر الغنّامي نفسه روح سلف العائلة... العالقة في السرداب منذ أجيال قال بصوت ينحت الهواء:

«أنتم لستم ورثتي...أنتم خطيئتي إن لم تُنهِ ما بدأتُه... سينهضون جميعًا.»

اهتزّت الأضرحة بعنف...ارتفعت الأتربة...أصوات همهمة...

أنفاس موتى تتحرّك بلا أجساد هربت ركضت بكل ما تبقّى من وعيي وأنفاسي خرجت من السرداب، عبر الممر، أغلقت الباب العملاق بقوة، وسقطت أمامه ألهث.

ثم حدث ما كنت أخافه انطفأ بصري لثوانٍ وحين عاد، لم أكن أنا، كنت جابر الغنامي تحركت بمهارة باردة...

يدي تلمس الأثاث بحثًا عن سلاح رأسي لا يديره وعيي...

بل وعيه هو، خرجت إلى الرواق كان يبحث... ينتقم... يريد دمًا قبل أن يغادر ذلك الجسد وفي آخر الرواق...

كانت رقية تنتظر واقفة... ثابتة...لا خوف...فقط حزن عميق في عينيها قالت بصوت منخفض:

«جابر... كنا نعرف أنك ستعود، العمامة ليست لك بعد...

الحارس الحقيقي للعمامة... هو أنا رقية... وليس أنت يا سيدي.»

انطلقت صرخة من جسدي ليست بشريّة بدأ الصراع هادئًا لكنه قاتل تمكّن جابر من إصابتها إصابة مميتة في رقبتها لكن قبل أن تسقط...مدّت أصابعها المرتجفة ونقشت علامة غائرة على صدري علامة تُعيد إليّ السيطرة.

سقطت بين ذراعي تتنازع تتنفس بصعوبة، قالت بصوت متحشرج:

«سامحني يا أنيس...ماقدرتش أحميك من كامل... أخويا...»

ثم شهقت...وماتت، انتقام جابر، جابر—المختبئ داخلي—سحب جثتها بقوة...عاد بها إلى السرداب...رماها داخل أحد الأضرحة الفارغةوأغلق الضريح عليها بلا رحمة ثم خرج...

وأغلق باب السرداب بالمفتاح عودة أنيس سقطتُ على أرض الممر وصرخت صرخة ممزقة، صرخة شخص استعاد وعيه فقط ليكتشف:

أن رقية ماتت بسببه.

أدركت حينها الحقيقة:

أنا... الخسارة الفادحة، أنا البداية ولست النهاية.

* * * *

بدأ الوعي يعود إليّ كأنني أطفو من قاع بئر عميقة.

صرخة حادة انفجرت من داخلي، ليست غضبًا، بل ندمًا خالصًا كُتبت بحروف الدم على روحي، قتلتُ عمّتي رقية.

وما زالت يدها الممدودة نحو صدري تلتهب فوق العلامة التي نقشتها قبل موتها بلحظات كانت العلامة تغلي حرارتها تخترق الجلد والعظم، والطنين المتصاعد منها يشبه همهمة كيان قديم يستيقظ من نومه وضعت كفّي عليها بكل قوتي، فاندفع الألم كصاعقة أزاحت الستار عن ذكرياتٍ نائمة تذكّرت لحنًا أبي كان يدندن به كل ليلة قبل النوم..لحن بسيط، لكنه حين عاد الآن كان يحمل شيئًا أكبر من الموسيقى...حمل تردّدًا قادرًا على فصل روحي عن قبضة الجد جابر كان كل شيء حولي ينقسم إلى نصفين...الغرفة نفسها تتمزق بين زمنين:

– الحاضر: أثاث عثماني ثقيل، غبار قديم، سكون مشحون.

– الماضي: غرفة موسيقية تتلألأ بالخشب المصقول، عشرات الآلات مصطفة كجنود بانتظار الإيقاع وأبي...

جالسًا أمام الأرج الكبير، وطفل صغير (أنا) بين ساقيه، يضرب المفاتيح بضحكة بريئة، وأمي تصفق وتغني بلكنتها الأجنبية الكلمات التي عشقتها منذ قدمت إلى مصر:

"الله يا ليل... يا بو النجوم اللولي في التيه يدلوني ويتدلوني..."

كانت لحظة سعادة خالصة..لحظة محمية من لعنة الزمن.

ثم انطفأت الصورة كما تنطفئ شمعة في قبر، أدركت فجأة العمامة، مخبّأة في مكان له صلة بهذا اللحن، بهذا الماضي، بهذا الأرج بالذات وكان على الجد جابر أن يمنعني بأي ثمن لذلك ثقل جسده فوقي، وبطأت خطواتي، كأنني أسحب جبالًا خلفي.

* * * *

خرجت إلى الممر المظلم، ظلام لزج كأن الجدران نفسها تتنفس وفجأة ارتفع نحيب مكتوم من النهاية.

اقتربت بحذر كانت وداد جالسة على الأرض، كتفاها يهتزان لكن لم يكن بكاء حزن كان بكاء شيء مكسور وشرس، رفعت رأسها ببطء وعيناها تلتمعان كأن خلفهما نارًا زرقاء قالت بصوت غاضب:

"كامل كان ضعيف يا أنيس أما أنا؟ فأنا الحارس الخفي... إللي بيضمن طاعة العيلة وأنت...خرّبت كل شيء."

ثم أشارت نحوي بقسوة:

"قتلت الوعاء النقي، رقية كانت آخر بوابة نظيفة للعهد يا أنيس."

تابعت ببرود مرعب:

"مستنية بس كامل يرجع ومعاه العصاية."

قبل أن أنطق، هاجمتني دُفعت إلى الخلف بقوة غير بشرية، اصطدم جسدي بالجدار في آخر الممر، وشعرت أن الهواء نفسه هرب من رئتي كانت أقوى ممّا توقعت...

أقوى من وداد التي أعرفها، شيء يسكنها... أحد أبناء جابر ربما أغمضت عينيّ أستدعي شيئًا أكبر من الرعب شيئًا من دمي، وجدت نفسي داخل السرداب ضريح جابر الغنامي أمامي، الضوء الأبيض ينفجر منه كفجرٍ شرس.

ثم يقترب ثم يندمج فيّ فتحت عينيّ لأجد نفسي واقفًا ثابتًا قوة غير بشرية تشد عمودي الفقري.

نظرت إلى وداد نظرة واحدة فقط فركعت فورًا، كأن شيئًا داخلها عرف من أنا الآن بصوت غليظ خرج من صدري ومن صدر جدي في نفس الوقت، سألتها:

"أين كامل يا امرأة؟"

خفضت رأسها وقالت:

"قال لي... قبل ما يهرب... إنه هيسيب القصر."

حينها دخل صوت رقية إلى رأسي ضعيفًا لكنه واضح:

"لقد حميتها بالدم اذهب إلى الأرج المكسور في القاعة الغربية ابدأ باللحن...واكسر الزمن."

حين رفعت رأسي...كانت وداد قد اختفت هربت عبر الظل... كما يهرب كل من يعرف أن النهاية قد بدأت.

*** * * ***

اندفعتُ في الممر الطويل، مدفوعًا بصوت رقية وبالقوة البيضاء التي بثّها جدي جابر في عروقي كل خطوة كنت أشعر فيها كأن الأرض نفسها تُسحب من تحت قدمي، لكن النداء كان أقوى من إرهاقي أقوى حتى من خوفي وحين وصلت إلى القاعة الغربية توقّفت أنفاسي كانت قاعة احتفالات هائلة تحتفل فيها العائلة بالمناسبات الخاصة و الأعياد الدينية التراب يغطيها بطبقة كثيفة كأن سنوات مضت فوقها دفعة واحدة لكن في نفس اللحظة كان هناك مشهد آخر يُعاد أمامي بتوازٍ مخيف:

الماضي النابض بالحياة—ضحكات، موسيقى، رائحة بخور وورد—والمستقبل الميت الذي يقف أمامي، حُطام وتصدّعات.

هذه الازدواجية لم تكن رؤية فقط كانت انشقاقًا في الزمن نفسه تجوّلت بعيني وسط الأطياف المتراقصة إلى أن رأيته في ركن القاعة المظلم كان الأُرج الموسيقي ينتظرني أُرج موسيقي ضخم مكسور نفس الأرج الذي كان يعزف عليه والدي لكن جزء كبير من الخشب كان محطمًا و كأن شيئا عنيفًا قد حطمه عمدًا خيوط العنكبوت ملتفّة حوله، والأوتار مقطوعة، والمفاتيح العاجية تتحول إلى صفرة الزمن القديم اقتربت وكلما اقتربت، أصبح الصوت أوضح:

ليس بكاء وداد بل أنين، أنين عميق يخرج من جوف الآلة نفسها، كأنها تتذكّر كل لحن عُزف عليها وكل لعنة مرّت عبرها مددت يدي المرتجفة ولمست الشقوق وبين الأوتار الميتة وجدت شيئًا يلمع بضعف العمامة.

لكنها لم تكن عمامة كانت لفافة جلدية عتيقة، عليها نقوش بالدم ونجوم سوداء محفورة بعمق خفيفة بشكل غير طبيعي كأنها ورقة تحمل سرًا أثقل من الكون.

ومجرد أن سحبتها اندلع وميض أخضر خفيف ملئ القاعة سمعت خطوة ثم ثانية التفتّ فخرج عمي كامل من الظلام لا أعرف إن كان خرج من ممر سري أم من طبقة أخرى من الزمن لكنه كان هناك وجهه لم يكن غاضبًا.

ولا مهددًا كان فارغًا ببرودة مطلقة، كأن روحه ماتت قبل جسده رفع العصا الخشبية نحوي وقال بنبرة لا تهتز:

"كنت عارف إنك هتيجي يا أنيس يا ابن أخويا."

ثم أمال رأسه قليلاً، ونبرة جنونه الخفي ظهرت:

"المكان ده هو قلب العهد."

تقدم خطوة وفي عينيه انعكاس ضوء العمامة التي أمسكها.

"رقية كذبت عليك العمامة مش بتكسر الزمن دي بتثبّته."

صمت لحظة ثم قال بصوت أخفض، لكن أشد سماجة:

"العمامة والعصاية دايرة كهربية زمنية لو اجتمعوا توقف الزمن القديم، وتحمي العيلة من اللي جاي من جوّة السرداب."

اقترب أكثر وابتسامة باردة شقت فمه:

"هات العمامة وهسيبك حي."

في تلك اللحظة لم يقف الرد في فمي بل في قلبي استدعيت اللحن الموسيقى التي تربطني بأبي وبالطفل الذي كنته وبالعالم الذي كُسر قبل أن أفهمه لكن قبل أن تتحرّك أصابعي هوت عصا كامل على العمامة محاولًا كسر الدائرة اصطدمت العصا بيديّ الباردتين وشعرت بوخز كهربائي يجري في ذراعي تذكّرت سمية ضحكتها صرختها.

ثم كلمات رقية الأخيرة التي لم أنسها:

"سامحني يا أنيس... سمية..."

وفي نفس الثانية استيقظ جابر بداخلي كوحش حُبس ألف عام لم أعد أنا من يتنفس كان هو صوته خرج من حلقي بلغة لم يفهمها أحد منذ قرون:

"لقد قتلت حفيدتي سمية والآن ستنال عقابك يا كامل."

فجأة تحرك جسدي بقوة خارقة قبض جدي جابر على كامل وطرحه أرضًا، وثبّته بقوة ألف رجل، مدّ جابر يده إلى قطعة من الخشب المحطم في الأُرج رفعها ثم طعن صدر كامل دون تردد صرخة كامل كانت قصيرة...

تشنج جسده و بدأ يركل بقدميه ويديه بعنف، عيناه توسعتا كطير مذبوح جابر لم ينتظر أن تخرج روحه.

أطبق يده على رقبته، واليد الأخرى على فمه شهق كامل الشهقة الأخيرة، ثم سقط رأسه بلا مقاومة نهض جابر واقفًا بجسدي، هادئًا مطمئنًا منتصرًا بحثت عن نفسي...

بحثت عن أي انعكاس أي دليل أن أنيس ما يزال موجودًا فرأيت مرآة ذهبية ضخمة بجانب الأرج.

مشروخة من المنتصف اقتربت وفي الانعكاس لم أرى وجهي بل رأيت جابر يبتسم ابتسامة انتصار باردة.

ابتسامة تُعلن أن اللعنة لم تُكسر بل اكتملت.

****

الفصل الخامس: الإنـهيار

بعد تلك الابتسامة حدث ما لم يخطر لي على بال.

بدأت الأضواء في القصر ترتجف بعنف، كأن الكهرباء نفسها ترتعب ثم اشتعلت المرآة المشروخة بضوءٍ أخضر لزج يتماوج فوق طبقة أخرى من الأحمر الداكن... لون يشبه دمًا يغلي حدق جابر في الشق، ولاحظ أن الزجاج لم يعد زجاجًا بل صار فتحة كونية سوداء، كأن القصر انشق عن السماء داخل الفتحة كانت كواكب صغيرة لامعة بألوان غير مألوفة تدور حول نجوم فضية مبعثرة، أجرام لا تنتمي لأي خريطة سماوية عرفتها البشرية ومع كل ثانية كان الشق يتوغل ويتوغل كأن أحدًا في العالم الآخر يحاول الدخول بالقوة ثم خرج منه ظلٌ عملاق.

لم تكن له ملامح، ولا رأس، ولا أطراف بل كان هندسة مظلمة ملتوية، شكل يتغيّر كل لحظة، كأنه ظلٌّ يبحث لنفسه عن هيئة مناسبة ليظهر بها تحدث داخل عقل جابر، بلا صوت بلغة الصمت المرعب التي يسمعها القلب قبل الأذن:

"لقد حررتني من الحراسة، الآن سآخذ القصر."

تجمد الدم في عروق جابر حينها فقط أدرك أن لعنته لم تكن قوة بل كانت قفلًا صغيرًا على باب هائل صرخ جابر، وحاول الهرب لكن الظلّ تحرك بسرعة مستحيلة...

وانحنى فوق جثة العم كامل وبمجرد لمسها، بدأت روح الكيان تنسحب إلى داخل الجسد الميت، كأن الظل يبتلعه ببطء لذيذ نهض كامل من الأرض جسده المطعون لم ينزف عيونه صارت بيضاء لا رمش فيها وجهه شيطاني قال بصوت لا يشبه البشر:

"أنت ستبقى هنا...الحراس الجدد سيجهزون المكان."

ثم استدار، وسار بثبات، ودخل الممر واختفى، كأن القصر ابتلعه أما جابر فبمجرد أن حاول الزحف للخروج من القاعة شعر أن قوة هائلة تمسك بقفصه الصدري من الداخل جسده تجمّد عند العتبة، كأنه مقيد بحبال غير مرئية ثوانٍ قليلة وصار الصمت كثيفًا ثم صرخة بشرية ممزقة خرجت من غرفة الخدم لم يكن يستطيع تجاهلها.

شعر بأن الكيان نفسه يدفعه دفعًا...يجذبه من داخله نحو الصوت، كأنه يقول له:

"شاهِد ما بدأتُه."

زحف جابر عبر الممر، حتى وصل لغرفة الخدم وهناك...

رآه صفوت ممددًا على الأرض، عيناه مقتلعتان تمامًا، وموضعهما فجوتان سوداوان ينزف منهما سائل داكن يميل للزرقة جلده مقشَّر، كأن يدًا عملاقة جردته منه شريحة شريحة أما جسده، فكان كتلة لحم لا شكل لها، كأن عظامه أعيد ترتيبها عبثيًا تحت الجلد وبجوار الجثة...

كانت وداد واقفة تضحك تضحك كأنها تسمع مزحة لا يسمعها أحد، ضحكًا هستيريًا يتصاعد ثم ينهار ثم يرتفع من جديد، قبل أن تغطي وجهها بيديها كأن النور يؤلمها.

قبل أن يفكر جابر في الحركة هز القصر صوت صدع عظيم من الأسفل ليس صوت زلزال بل صوت انفكاك حاجزٍ قديم وما إن هدأ الصدع حتى انطلقت الأصوات دفعة واحدة من كل أركان القصر:

نحيب أطفال قادم من دورة المياه المهجورة نحيبٌ غير بشري، يختنق ثم يعود. صراخ صبيح بلغة لاتينية مشوهة من غرفة عليا، كأنه يحادث أحدًا تحت الأرض.

ضحكة مجنونة تتحرك، تقترب حينًا وتختفي حينًا، كأن صاحبها يمرّ عبر الجدران. صرخة حادة قادمة من غرفة الطفل عبد الحميد ثم من الإسطبل صهيل وحش ليس حصانًا، صرخت وداد فجأة صرخة مذبوحة، وركضت نحو غرفة ابنها جابر لحق بها شاهد اللحظة التي انشق فيها جدار الغرفة، وخرجت منه يد سوداء نحيلة أمسكت عبد الحميد من قدمه وسحبته إلى الداخل بسرعة خاطفة واختفى الجدار وداد انهارت على الأرض تصرخ وتضرب رأسها.

ركضت بعدها في الممر، بملابسها الداخلية، فاقدة كل عقل.

وفي لحظة غريبة لحظة إنسانية وسط الكارثة ألقى جابر عليها سترته دون أن يفكر لكن بمجرد أن فعل...

انكمش الهواء حوله، وشعر بقوة سماوية كونية تضغط على ظهره، وتدفعه نحو الباب الخارجي لم تكن قدمه خاضعة له بل لشيء آخر أدرك حينها أن الكيان يريد منه أن يخرج ليشاهد بقية الفوضى التي أحدثها في القصر..

* * * *

حالما خرجتُ من القصر...سقط الهواء على وجهي كصفعة.

ظننت للحظة أنني نجوت لكن الحقيقة كانت أبعد ما تكون عن النجاة الكيان الخارجي بدأ بالفعل عمله.

نظرت إلى الإسطبل... ثم تجمّد قلبي كل الخيول مقلوبة رأسًا على عقب أجسادها معلّقة بطريقة مستحيلة، سيقانها تتدلّى في الهواء، وعيونها مفتوحة تحدّق في الفراغ حتى الفرسة التي كنت أركبها وأنا طفل رأيتها ميتة، ورأسها مدفون داخل التراب كأن الأرض ابتلعتها نصف ابتلاع.

مشهد لن ينساه عقلي مهما حاول كنت أعلم وقتها...

أن الكيان الذي تحرر من المرآة ليست له قوة "خارقة" فقط بل قوة خارجة عن قوانين الكون نفسه ثم رأيت شيئًا أبشع محروس السائق مرميًّا على الأرض قرب باب الإسطبل، رأسه مائل بزاوية غريبة، رقبته منحوُرة بخنجر صدئ ينزف دمًا يغلي ــــ حرفيًا ــــ كأن الشريان يغلي فوق نار عرفت فورًا أن هذا الخنجر ليس من ممتلكات العائلة كان قديمًا، باردًا، يصدر عنه وميض بنفسجي غريب وفهمت أن القاتل لم يكن الكيان مباشرة بل كان العم كامل العائد من الموت كان يتحرك بسرعة غير إنسانية، يظهر في كل مكان، يضرب، يختفي، يعود كأنه نسخة عن الفوضى نفسها وبينما أنظر في ذهول رأيت وداد تركض نحو الغيط قميص نومها ممزّق، والجاكيت الذي رميته عليها يتدلى من كتفيها، ووجهها خالٍ من أي عاطفة...

كأن روحها انطفأت ركضت خلفها وصلنا إلى الشجرة الميتة مكان الطقس الأول من بعيد رأيت العم كامل واقفًا بجوار الجذع اليابس، بملامح جامدة كأنه تمثال ميت.

وداد كانت معلّقة من قدميها في نفس الموضع الذي عُلّق فيه الضيف قديمًا على فمها لاصقة سميكة، وعيناها تحاولان الصراخ دون صوت ثم رفع كامل العصا الخشبية...

وهو ينظر إليها ببرود جثةــــوأنهال عليها ضربًا ضربة، ثم ثانية، ثم عاشرة، حتى هدأت أطرافها تمامًا.

سقطت وداد كأنها ورقة شجر ذابلة لم أستطع الصراخ.

لم أستطع الهرب كل شيء كان يتحطّم داخلي.

لكنني رغم ذلك عدت إلى القصر دفعت الباب الداخلي بخوف، وتوجهت مباشرة نحو قاعة الاستقبال وهناك...

رأيت عمي صبيح جالسًا على الأرض، يتحدث بصوت عالٍ بلغة لاتينية مختلة، ليس مع أحد بل مع الهواء كان يهز قدميه بقوة مرعبة، وعيناه جاحظتان، فارغتان لا تحملان شيئًا سوى الجنون المطلق التفت فجأة نحوي نظرة واحدة، ثم بدأ يصرخ:

"إهْرُب يا أَنيس! الكِيان قادم... هو النهاية!"

ثم انقلب صوته صار صوتين فوق بعض:

صوت صبيح وصوت آخر مظلم:

"أنت ملكُنا الآن يا جابر...أهل السرداب سيأخذون الأجساد كلها...إن استطعتَ الهرب من يديه... فلتَهرب."

ثم حدث شيء غير متوقع في لحظة وعي قصيرة في وسط جنونه، همس بصوت مرتجف:

"العمامة ليست لكسر الزمن فقط...إنها جهاز تسجيل...

سجَّلت كل شيء...كامل أخذ النسخة... قبل أن يدمّرها الكيان."

وبعد الجملة...سقط صبيح كدمية خالية من الروح.

أدركتُ فجأة:

المفتاح الوحيد الآن هو العثور على كامل الذي يحمل النسخة ركضت من القاعة، دفعت الباب الرئيسي، وضربتني برودة الليل حتى شعرت أن الهواء نفسه يريد قتلي.

لكن قبل أن أخطو خطوة واحدة رأيت الظل امرأة طويلة، هزيلة، بلا ملامح، واقفة قرب العتبة، كأن الليل صاغها من سوادٍ خالص، كان وجودها وحده يضغط على صدري ويبتلع الهواء من حولي حاولت أن أصرخ فلم أستطع حاولت أن أقف فلم أقدر سقطت على الأرض وبدأت أزحف على بطني مثل طفل مذعور نحو أقرب غرفة لكن جسدي لم يتحرك إلا سنتيمترًا واحدًا ثم، خرج صوت فخم مزدوج، صوت العم كامل وصوت أنثوي عميق، يحمل صدى كونًا قديمًا، ليس صوت وداد، بل صوت كيان أقدم من البشر قالت الظلّ بصوت خافت يرتد في كل حجر:

"افتح الباب يا أَنيس...ليس باب القصر... بل باب الذاكرة.

لقد حان دَورُك."

وفجأة رأيت الماضي كله يرتطم في عقلي رأيت سمية تُقتل رأيت الجريمة تُعاد أمامي لكن القاتل لم يكن كامل.

ولا الكيان كان أنا، أنيس، أنيس الذي تلبس بروح جابر في ذلك الزمن أنيس الذي لم يكن يعرف أنه لم يعد نفسه أدركت أن الكيان لا يريد قتلي بل يريد فتح العهد والاستيلاء على جسدي بالكامل ثم جاءني شعور غريب...

ليس من الظل، بل من باب القصر نفسه معلومة سريعة صدمت عقلي:

- اهرب الآن.

أغلقت الباب بقوة، وركضت، ركضت بلا وعي، بلا تفكير، بلا حتى النظر خلفي، نحو الغيط هناك حيث الضحك، والجنون والعواقب التي صنعتُها بيدي.

****

ركضتُ عبر الغيط بقوّة جابر التي ما زالت تسري في عظامي كسمّ قديم شيءٌ ثقيل كان يجرّ يدي إلى الأسفل؛ نظرت إلى راحة كفّي الخنجر المسموم الذي قُتل به محروس كان مثبتًا بين أصابعي، كأن أحدهم دسّه هناك دون أن أشعر وفي أثناء الجري، تضخّم الصمت من حولي حتى صار له نَفَس، ثم اخترقه صوت الكيان، حادًّا، غاضبًا، يتردّد في رأسي كقرع معادن:

– أوقف الذاكرة الآن! لا أريدك أن تعرف شيئًا آخر!

تجمّد الهواء حولي للحظة أدركتُ عندها الحقيقة التي لم تخطر لي من قبل:

الكيان لا يريد قتلي بل يريد منعي من تذكّر المعلومة الأخيرة التي قالها عمي صبيح عن العمامة قبل أن يغمى عليه.

واصلتُ الركض عشوائيًا حتى انتهى بي الطريق إلى بئر قديم، بئر منسيّ لا يزوره أحد كان الهواء حوله باردًا، ساكنًا كأن المكان يحتفظ بأنفاس من دُفنوا حوله.

وقفت بجواره وأنا ألهث، ثم لامستُ جدار البئر المتآكل أبحث عن أي علامة فجأة تحرّكت بلاطة صغيرة تحت أصابعي، كأن أحدًا سحبها من الداخل أمسكتها ووضعتها بجانبي، ثم مددت يدي داخل التجويف المظلم وجدت شيئًا صغيرًا مُلفًّا في ورقة حمراء سحبتها بحذر، فتحتها...

"كامل لن يذهب بعيدًا، الزمن يحتاجه بالقرب من السرداب."

كان الخط متعرّجًا، لكن واضحًا ربما عمتي رقية وربما عمي صبيح أطبقت الورقة ووضعتها في جيبي، لكن لحظة إغلاق يدي عليها شعرت بقوّة غير مرئية تجبرني على الوقوف ضغطت على العلامة المحروقة على صدري—العلامة التي نقشتها عمّتي رقية قبل موتها بثوانٍ انقسم رأسي إلى صوتين:

صرخة الجد جابر في داخلي وصرختي أنا التي تحاول أن تتذكّر الاثنان يصرخان، يطحنان عقلي، الصمت كان كثيفًا كأنه ينتظر حدثًا أكبر مني، كأنه غرفة كاملة تحبس أنفاسها لتراقب ما سأفعله. لكنني صرخت أعلى، ومزّقت الصمت الذي كان يطبق على صدري قلت بصوتي أنا، لا بصوت جابر:

– أنت السبب في كل ده أنا همحيك من ذاكرتي للأبد.

صرخة جابر ارتجّت في داخلي، مكتومة، محطمة

كنت أسمع صوتي يصرخ داخلي صراخ أعرف أنه آخر جزء بشري حقيقي فيّ... لكن فمي لم يتحرك استدعيتُ اللحن الموسيقي ليس حزينًا كما كان، بل غاضبًا، حارقًا وفجأة انطلق تيار كهربائي أبيض من العلامة، مرّ خلال صدري كطوفان شعرت بروح جابر تُسحب من داخلي ببطء كسائل أسود ينساب إلى خارج جسدي سقط جابر على الأرض في هيئة ظل، ثم تفتت...

حتى لم يتبقّ منه سوى رماد أسود محترق يتصاعد كدخان استعدت السيطرة على جسدي، لكن الذاكرة الذاكرة لم تكن كما كانت هناك ثقوب، فراغات، أشخاص بلا ملامح وعندما نظرت إلى يدي، وجدت الورقة الحمراء مرة أخرى لكن كلماتها تغيّرت:

"إذا أردت العمامة، اذهب إلى السرداب الآن. حرّر نفسك."

فهمت رقية عمتي هي من أجرت عملية التطهير الأخيرة.

****

الفصل السادس : أهل السرداب

ركضتُ نحو السرداب، مدفوعًا بالندم، وبخوف من الحقيقة التي تنتظرني الصوت في الداخل كان كعاصفة تُحبَس داخل صندوق؛ موجات من الهمسات، حشرجة صخور ونبض الزمن نفسه، تفحّصت الأضرحة بسرعة—كل الجثث في أماكنها..ما عدا ضريحًا واحدًا ضريح رقية فارغ، هل اختطفها أهل السرداب؟ أم الزمن محاها؟ لا أدري، على باب الضريح رأيت أثر دمها، الدم كان يلمع بلون أحمر ثقيل، ثم بدأ يتحرّك يتجمّع يتحوّل إلى كلمات:

"كامل في القاعة المجاورة... إنه ينسخ الزمن العمامة الأخيرة ليست لك... بل له تخلّص من النسخة."

قبل أن التقط أنفاسي تبدّل الهواء برد شديد رائحة تراب قديم وظهر عمي كامل فجأة، كأن الزمن طواه ثم بسطه أمامي كان يجلس على كرسي أشبه بالعرش، يمسك عصًا جديدة، وعيناه تلمعان ببريق غريب ابتسم وقال بهدوء بارد:

– لقد تأخرت يا أنيس، النسخ انتهى.

اقتربت خطوة عيناه كأنهما بوابتان للزمن نفسه قال بنبرة تملؤها الهيبة:

– أعرف ما تريد أن تفهمه قصة والدك يحيى، زوجته الإيطالية وحقيقة هذا السرداب.

حاولت الكلام لكن نظرته أوقفتني، نظرة حادة تقول: اصمت ودعني أتحدث.

فركعت على ركبتي دون وعي، كأن شيئًا في صوته يجبرني. قال بنبرة ملكية مهيبة :

عندما أنتهي دور جدك منصور من حراسة السرداب ذهب إلي والدك وقال له :

لقد انتهي دوري يا يحيي عليك أن تمسك انت زمام الأمور و تتولي حراسة أهل السرداب ..

قبل أن يرفض والدك قال جدك جملة غريبة :

لن تتمكن من الرفض أو حتي الهروب بعائلتك إلى خارج القصر فحدودك هنا يا يحيي فأنت كالسمكة التي لو خرجت من الماء تموت ..

فكر والدك حينها أن يغير من معاملته مع زوجته الإيطالية الحبيبة ويندا لينا ربما تكرهه و بالفعل بعد مرور شهر كامل نجح والدك في تنفيذ خطته و رحلت أمك و كنت أنت طفلا صغيرا ابن عام واحد فقط و حملتك معها و عادت إلي إيطاليا ..

رأيته...عمي كامل ليس الطفل الذي كان في الصور... بل شيئًا آخر. عينان هادئتان أكثر من اللازم... وكأنهما لا تبحثان عن أمّ، بل عن ضحية.

صرخت لم أتحمل كلامه كان دمي يفور و يغلي وقلت بنبرة غضب :

يعني جدي السبب في فراقهم ..

روى الحقيقة كاملة ومع كل كلمة، كان شيء داخلي يتحطم ثم قال أخطر ما في الأمر:

– السرداب ليس سردابًا إنه السطح الأعلى لمدينة كاملة مدفونة، لِقبيلة فرعونية عاشت في الظلام حتى تغيّرت أجسادهم عيون صغيرة بشرة شفافة عظام خفيفة

اعتماد كامل على أجساد جديدة ليعيشوا فيها فوق الأرض، كل جثة في الأضرحة ليست ميتة بل "عرين" لواحد منهم ثم نطق الاسم:

– قبيلة خَعِب نِسِت... أبناء الظلمة الملكية وتعني أيضًا قوة الظلام المقدس و هي القبيلة التي اختارت الظلام موطنًا حتى صار جزءًا من دمها وبدأ يشرح:

١. عيونهم تطورت أصبحت واسعة، شبه لؤلؤية، تتوهج بخفوت. يرون في أعمق الظلمات... لكن الضوء يقتلهم.

٢. لا يعيشون فوق الأرض سكنوا سراديب الطقوس، المقابر الملكية، فتحات الدفن، ممرات القرابين. أصبحوا سكانًا للحدود بين عالم الأحياء وعالم الموتى.

٣. لديهم لغة همسات لا يتحدثون بصوت عالٍ فقط أنفاس متقطعة تُفهم بالفطرة لأن آذانهم تكيفت مع الطبقات الخفية للصوت.

٤. يعتقدون أن الظلام كيان مقدّس ليس مجرد عدم وجود الضوء بل حضور روح قديمة. وهم خدامه

وما إن أنهى كلماته حتى ضرب الأرض بالعصا، اهتزّت الأضرحة ثم انفتحت خرجت الظلال كائنات طويلة، شاحبة، بعظام رخوة، تتحرك كأنها تُسحب لا تمشي.

الظلام كان يتجمع خلفه كأنه ليس جالسًا فوق كرسي، بل فوق حفرة زمنية مفتوحة ثم انحنوا أمامه، وبعدها أشار إليّ، لم يهاجموني مباشرة، بل وضعوا آذانهم قرب الأرض، كأنهم يستمعون لنبضي، قبل أن يندفعوا دفعة واحدة انقضّوا جميعًا دفعة واحدة وأسقطوني أرضًا.

* * * *

في تلك اللحظة تحديدًا، شعرت ببرودة حادة تشق جلدي كما لو أن الموت يلتهمني من أطرافي إلى قلبي، أصابع الكائنات كانت تنغرس في لحمي كإبر جليدية، تمتص دمي ببطء لئيم، بينما كانت أنفاسي تتقطع وكأن الهواء نفسه يهرب منّي، العالم حولي دار كدوامة قاتمة والصمت تحوّل إلى صدى بعيد، يشبه صوت شيء يستعد لابتلاع روحي بالكامل وقبل أن أغرق في ظلام كامل، سمعت صرخة الانتصار، صرخ الكيان الخارجي بصوت مزدوج، يجمع بين عمّي كامل وبين الصوت الغريب الذي يسكن الظلام:

"افتحوا العرين الجديد!"

كان هذا إعلان موتي، لكن في اللحظة ذاتها لحظة الانهيار أدركت أن أصابعي ما تزال تقبض على الخنجر المسموم لا أعرف كيف ظل بين يدي ربما رمية أخيرة من القدر بحركة يائسة خاطفة، غرست الخنجر في أقرب كيان انطلقت منه صرخة حادة أشبه بصفير يمزق الهواء، ثم تلاشى كرماد يتبدد لكن ما كاد يختفي حتى ظهرت عشرات النسخ، لم يموتوا، بل تكاثروا وسط هذه الفوضى، رأيت الكيان الأعظم يضع عصاه على العمامة المنسوخة استعدادًا لإنهاء الطقس الوميض الأخضر بدأ ينتشر في السرداب مثل ضوء حي كأنه يلتهم الحجارة والأضرحة.

في تلك اللحظة دون سبب منطقي صرخت باسم رقية.

كان صوتًا يخرج من مكان عميق داخلي، صوتًا يائسًا، خامًا، يشبه استغاثة طفل وفجأة بردت يدي، ثم صارت أقوى وضعتها على الأرض فاهتز التراب تحت كفي، كأن أحدًا يجيب النداء، وقفت وسط كائنات الظلام الهزيلة، وبدأت أهمس باللغة اللاتينية القديمة لغة الجد الأكبر جابر الغنامي، ممزوجة بنبرة الأغنية التي ورثتها عن أبي.

فجأة ارتجّ السرداب صرخت الكائنات كلها دفعة واحدة، وضعت أيديها الطويلة على آذانها، ارتجفت، تراجعت...

أدركت حينها أن الهمس نفسه أصبح سلاح تشويشًا مميتًا بالنسبة لهم وفي تلك اللحظة فقط، فهمت، قوة عائلة الغنامي ليست شرًا خالصًا ولا نورًا خالصًا.

هي خليط توازن هش بين الاثنين نظرت يائسًا حولي بحثًا عن ضوء، أي ضوء، فلمحت في ركن معتم مصباح زيت قديم، داخله شمعة صغيرة مشتعلة ركضت نحوه وانتزعته من الأرض النار تراقصت بين أصابعي، ذكرتني بأبي عندما أشعل السرداب في المرة الأولى هذه المرة، توجه الضوء نحوهم — ليس للهروب بل للهجوم، تراجعت الكائنات فورًا، سقط بعضها على بعض، صرخت، انكمشت في الظلام، تقدمت نحو الضريح الفارغ ضريح رقية أو ربما ضريح عبد الحميد وشيء داخلي كان يقودني هناك وجدتها العمامة الأصلية بمجرد أن لمستها، توهجت يدي بضوء أبيض نقي تضاعف الضوء ضوء الشمعة، وضوء العمامة، كأنهما نبضان في قلبي ارتدت كائنات الظلام إلى الخلف، تصدر أصواتًا تشبه الحشرجة، التفت الكيان الخارجي إليّ، وعيناه تتسعان في ذعر حقيقي لأول مرة:

"هذا الضوء... الدم الإيطالي فيك يا أنيس... الضوء يقتلهم!"

رفعت العمامة عاليًا وصرخت باللحن القديم:

"الله يا ليل يا بو النجوم اللولي..."

بدأت العمامة المنسوخة في الاهتزاز ثم التشويش تصدّعت هالة الظلام حول الكائنات أجسادهم ارتعشت كأن الضوء يمزقهم هجم الكيان الأعظم من فوق عرشه،

ومعه أسراب الظلال، يتدافعون، يسقطون، ينهضون، يتحركون كأن عظامهم تنصهر ركضت بكل قوتي خارج السرداب.

وأغلقت الباب خلفي، لكن قبل أن يستقر الباب في مكانه ارتطموا به بقوة خارقة، اهتز الخشب، وتشققت الأحجار، ورأيت من خلال فتحة صغيرة في الباب، الكيان بنفسه يقترب ركضت نحو أقرب غرفة، ققزت داخلها، وأغلقت الباب بقوة وعاد الصمت لكن هذه المرة لم يكن صمتًا عاديًا، بل صمتًا ينتظر نهايتي أو ولادتي الجديدة.

* * * *

الفصل السابع : الإنقلاب

حالما دخلت الغرفة، أدركت أن الوقت أصبح ضدي، شعرتُ كأن ساعات عمري تنزلق داخلي مثل حبات ساعة رملية تتساقط ببطء قاتل، ولا يعود منها شيء خلفي، جاء صوت ارتطام الكائنات الظلامية بالباب...

لم يكن مجرد طرق، كان يشبه ضربات مطرقة عملاقة تسحق الخشب كما تسحق العظام كل ضربة كانت تقرّب نهايتي خطوة، ألقيت نظرة يائسة على الغرفة:

سرير قديم تغطيه طبقة غبار رمادية مكتبة خشبية، كتبها كأنها لم تُفتح منذ موت ساكنها دولاب خشبي ومرآة كبيرة مائلة قليلًا كأن أحدًا وقف أمامها ثم اختفى فجأة.

الصمت كان كثيفًا، كأنه ينتظر حدثًا أكبر مني.

نظرتُ إلى صدري، مكان علامة العمة رُقية كان ينزف بشدة، داخلي شيء يخبرني أن النزيف ليس جرحًا، بل بوابة تُفتح، بحثتُ في الأدراج بارتباك، حتى وجدت مقصًا نحاسيًا كبيرًا، مزّقت به الستارة واقتطعت قطعة طويلة وربطتها حول صدري، وقف الإناء القديم على الرفّ، مليئًا بماء راكد رائحته كأنها من قبر، مع ذلك شربته دفعة واحدة ثم سقط الصمت على المكان فجأة، صمت له وزن، صمت يشبه فمًا يبتلع الأصوات، بدأت أفتّش في المكتبة بين الكتب وجدت ورقة مطوية بعناية، وعندما فتحتها ارتجفت يدي:

كانت رسالة أبي، لكنها كانت تُكتب أمامي سطور جديدة تظهر كما لو أن قلمًا غير مرئي يتحرك فوق الورقة:

"اخترتُ أصعب قرار، أن أبعدك عني، اللعنة تصل للوريث عند سنٍ معين، حاولتُ حمايتك... لكن الظلام دائمًا أسرع."

ثم توقف القلم وكأنه خاف أن يكمل، وجدت صور الأولياء السابقين:

جدي منصور، جدي الأكبر جابر الغنامي، جدتي وعد حسن الحربي، أبي، وعمي كامل وجوههم كانت تحمل شيئًا واحدًا: نهاية غير مكتملة، جنون، اختفاء، أو شيء بينهما، سقطت مذكرة صغيرة من بين الصفحات، فتحتها ففاحت منها رائحة تراب قديم وخط مبعثر كتب:

"حاولتُ إنهاء اللعنة عبر المرآة القبطية، لكنهم أمسكوا بي قبل اللحظة الأخيرة، أهل السرداب جعلوني وعاءً لهم."

إمضاء: وعد حسن الحربي.

تجمدتُ تساءلت:

أنا الآن في غرفة جدتي إذن؟

اقتربت من المرآة، حيث كان مكتوب عليها بخط قبطي بارز:

"المرآة لا تعكس الوجه... بل الروح."

صرخت:

– مش فاهم!

فتغيّر الخط أمامي، وكأنه يُحفر داخل الزجاج:

المرآة تكشف الشكل الحقيقي لأهل السرداب: بلا ملامح بلا عيون ظلال تتشبث بالأجساد

لكن الأهم:

"المرآة تكشف الحقيقة المختبئة داخل أنيس."

ثم جملة أخيرة: عليك أن تواجه نفسك، وتتحلّى بالشجاعة.

ظهر على سطح المرآة انعكاس آخر، رأيتُ أنا آخر، أكبر سنًا، منهكًا، ووجهه مشوه من الظلام نظر إليّ بعينين مطفأتين وقال:

"أنا أنت... لو فشلت."

اهتزت المرآة، وخرجت منها ورقة صغيرة مكتوب عليها:

"طقس كسر العهد" – الطقس المنسي منذ ١٢٠ عامًا.

المكونات:

دم الوريث

المرآة القديمة

مفتاح السرداب

حضور الحارس السابق

ما إن فكرت في تنفيذ الطقس حتى بدأت الأضواء تنطفئ واحدة تلو الأخرى، الظلام كان يتقدم نحوي كما لو كان حيًا، الباب تحطم نصفه، وسمعت صوتًا ضخمًا يقول:

"اتركوه لي... الجسد الجديد أقوى."

ثم أعمق، أبطأ، أكثر رعبًا:

"تعال يا أنيس... نواجه بعض. رجلًا لرجل."

رن الهاتف دون أن ألمسه، سمعت صوت أمي، من مكان لا أعرفه كانت تلهث وهي تقول:

"شوفت كابوس... الظلال بتجري وراك... ارجع يا أنيس..."

وقبل أن أرد... انهار المشهد حولي، فجأة وجدت نفسي في السرداب من جديد، لكن شيئًا ما تغيّر، نظرت حولي وقلت بصوتٍ مبحوح:

"إزاي مالاحظتش الحاجات دي قبل كده...؟"

الجدران لم تعد حجرًا كانت ملساء، كأن مئات الأظافر حفرتها عبر الزمن الرطوبة لم تكن ماءً، بل لهاثًا، الأضرحة لم تكن قبورًا بل أبواب صغيرة تؤدي لممرات غير بشرية ، الجثث داخلها لم تكن جثثًا بل أوعية فارغة.

أدركت الحقيقة:

السرداب ليس مكانًا، بل مرآة الداخل.

يعكس عقد العائلة جثةً جثة:

– جثة تصرخ ← جد مات مختنقًا

– جثة تضع يدها على بطنها → حمل غير شرعي

– جثة بلا لسان → عهد صمت مفروض على النساء

– جثة مقلوبة → انقلاب الابن على أبيه

كل جثة كانت ذاكرة حيّة، ليست ميتة وعاء واحد كان يرتجف، اقتربت ورأيتها جدتي جسدها ما زال حيًا.

عينها تتحرك بسرعة غير بشرية، أظافرها طويلة، أمسكت بيدي بقوة مذهلة فجأة، بدأت جثث الأجداد تتدلّى من السقف مربوطة بخيوط من الظلام تتحرك كعرائس ميتة.

أصوات الهمس ملأت المكان، همسات تقدّم نفسها كـ كهنة السرداب ثم ظهر الكيان الساكن في جسد عمي كامل.

وقف بجانب ضريح جدتي، وجهه يبتسم وبطنه يتحرك كما لو أن شيئًا يحاول الخروج منه رفع رأسه نحوي وقال بصوت ميت:

"كل جيل لازم يقدّم واحد جديد وأنت يا أنيس... هديتنا الأفضل."

*** * * ***

بينما كانت يد جدّتي تتشبّث بي بقوةٍ غير بشرية، حاولت أن أفلت منها، لكن قبضتها ازدادت قسوة، أظافرها الطويلة انغرست في لحمي كأنها تتشبث بالحياة ذاتها، أو كأن موتها هو الباب الأخير الذي تحاول إغلاقه بأي ثمن.

وفي تلك اللحظة انطلقت ضحكة منخفضة، ثقيلة، كأنها تخرج من باطن الأرض، كان هو "سوبِك أرام" قائد قبيلة خَعِب نِسِت الملقّب بـ الملك الأسود رفع وجهه نحوي بكبرياء مَن يعرف الحقيقة كاملة منذ مئة قرن، ثم قال بصوت متعالٍ، صوته يشبه ضرب الحديد على الحجر:

«جدّتك وعد ليست ضحية كما صدّقت...هي الخائنة الأولى، التي بدأت اللعنة قبل مئةٍ وعشرين عامًا حين تآمرت مع أشرف، الأخ الأصغر لجابر الغنامي، لإفتعال كذبة دفنه حيًا.»

تجلجل صوته بين جدران السرداب شعرت أن الهواء نفسه يخجل من الحقيقة.

«جدّتك كانت تتلاعب بالأجيال كلها، تُمرّر اللعنة بينهم من داخل السرداب، وأنتم لم تكونوا سوى أحجار.»

ثم ضحك ضحكة قصيرة، جارحة:

«أو ربما من الأفضل أن أقول حلفاؤك خانوك يا ريتشارد.»

شعرت كأن الأرض تُسحب من تحت صدري وهمست في داخلي:

"لم أعد أعرف من عدوي جدّتي؟ أمي؟ أم أنا؟"

لكن "سوبِك أرام" لم ينتهِ رفع يده، وكشف عن ما هو أسوأ:

«الجسد الأقوى ليس جسدك يا أنيس، بل جنينٌ جديد في بطن العم كامل، الوريث الأول الذي مات قبل مئتي عام، سلالة من الظلام تنتظر الولادة من خلالك كوسيط.»

كلماته اخترقت رأسي كخنجرٍ صدئٍ مسموم وفهمت فجأة:

كسر العهد لا يدمّر الكيان بل يحرّره، ومع إدراكي لهذه الحقيقة بدأ السرداب يرتجف.

حدث شيء ما في المرآة القائمة في عمق السرداب، سطحها تحوّل إلى ماءٍ أسود، ثم إلى ضوءٍ بارد، ثم إلى بوابة روحية مفتوحة ظهرت أمّي وقفت داخل انعكاسها بثباتٍ لا يشبه الأحياء كانت تحمل في يدٍ صليبًا إيطاليًا قديمًا من تراث عائلتها، وفي اليد الأخرى مصحفًا ورثته عن والدي يحيى الغنامي، قالت بصوت يأتي من عالمٍ آخر:

«أنا ابنة سلالة قبطية قديمة كانت تحرس هذه المرآة منذ قرون، زواجي من والدك لم يكن صدفة، كنت أعلم كل شيء عن لعنة الغنامي، وحين حاولتُ أن أنقذه فشلت.»

صمت السرداب كله حتى الظلال أصغت.

«ولم آتِ عبثًا، بل أحمل النصف المفقود من الطقس، الجزء المسيحي الذي تحتاجه المرآة.»

مددت يدي نحو انعكاسها وحين لامستُ سطح المرآة، شعرت بدمينا — الإسلامي والمسيحي — يمتزجان داخل الضوء كانت تلك لحظة التحالف الجديد أنا وأمّي

ضد الملك الأسود لكن التحالف لم يدم صرخ "سوبِك أرام" بصوته الهائل، وبدأ الضوء يتشوّه حولنا الأرض اهتزّت، الهواء انكمش، والظلال على الجدران التفّت كأنها ثعابين من دخان ثم نطق الطلسم:

«يا كاسر السماء القديمة، يا سيّد الأرواح، يا ممزّق روابط الدم، أعتم وجه الظلال وامحُ ختم العهد يا نور الموت، اقفل أبواب السرداب، أنا آمرك: اكسر... امحُ... شَوِّه...!»

ارتفع صوت الطلسم كأنه يأتي من كل مكان، المرآة ارتجفت، ضوئها تمزق ثم انكسرت لكنها لم تنكسر مثل الزجاج بل انكسرت كروحٍ تُسحَق، سقط انعكاس أمّي واختفى كأنه لم يكن وبينما كنا نحدّق في الشظايا المتلاطّمة، بدأت المرآة ببطء مخيف تُعيد تشكيل نفسها السطح يلتئم، الضوء يعود، الطاقة تتجمع في مركزها أقوى مما كانت وعرفت حينها أن ما حدث لم يكن صدفة، لقد بُنيت من جديد كأن من كسرها يريدها أقوى.

* * * *

صوت تكسُّر المرآة كان كأنما ينكسر عظم في جسدي، بقايا الروح المبعثرة لامست وجهي كرذاذ ماء بارد لكنها لم تكن ماءً، كانت ذكريات ذكريات لم أعشها قط:

رؤية جابر الغنامي وهو يُدفن حياً، يداه تخدشان الحجر من الداخل صوت وعد حسن وهي تضحك في الظلام، تضع خاتم العهد على إصبع الكيان نفسه أبي وهو يهمس لطفل رضيع (أنا) قبل أن يسلّمني لأمي:

"سامحني... بس أنا مش عاوزك تبقى زيّنا."

الذكريات اخترقتني ثم تبخرت، تاركة فراغاً مؤلماً في صدري، المرآة الآن واقفة، سليمة ظاهرياً، لكن شيئاً داخلياً كان يعرف أنها لن تعمل مرة أخرى. البوابة أُغلقت.

لكن لم تكن مغلقة تماماً على أرضية السرداب، حيث تفتتت المرآة للحظة، بقي خيط واحد من الضوء. خيط رفيع كشعرة، يمتد من مكان المرآة إلى... إلى يدي أنا. كنت أحمله دون أن أدري، دمي المختلط – من جرح يدي حيث قبضت جدتي – كان يقطر على الأرض، والضوء يتشبث به كأنه حبل نجاة "سوبِك أرام" نظر إلى الخيط الضوئي ثم إليّ، وابتسامته الواسعة تلاشت لأول مرة. لم يكن يبدو غاضباً، بل مرتبكاً.

همس بصوته المزدوج: مستحيل "الدم الإيطالي... القبطي... الإسلامي... المصري. الخليط الذي حذّرونا منه."

جدتي وعد صرخت من داخل ضريحها، صوتها يشيخ فجأة:

"اقطع الخيط! اقطعه قبل أن يتذكر!"

سألتُ، ونبرتي أكثر حدة مما كنت أتوقع:

"يتذكر ماذا؟"

الكيان تقدم خطوة، وعيناه – عينا عمّي كامل الميتة وعيناه السوداوان الخاصتان – تحدقان في الخيط الضوئي. قال بهدوء مخيف:

"يتذكر أن العهد الأول لم يكن عهد خيانة، كان عهد حماية، جابر الغنامي لم يُخن هو قبل أن يُحاصَر هنا ليحمي العالم منّا نحن، من جشعنا، نحن كنا الطامعين في القوة ووعد"

أشار بيده المشوهة نحو جدتي: "كانت جاسوستنا داخل العائلة."

الكلمات كانت تطرق باباً عميقاً في ذاكرتي، كأنها لم تُقل الآن، بل أُعيد تلاوتها، شعرت بدوار الأرض تدور، والطقس الحقيقي استمر الكيان، وصوته يهتز بين الكبرياء والمرارة، ليس لتحريري بل لإنهائي.

لتحريركم منّي ولتحريري أنا من هذا الشكل من هذا الجشع الذي صرتُه الدم المختلط – دمك ودم أمك – هو المفتاح، هو الوحيد الذي يستطيع تنفيذ الطقس كما كُتب أصلاً، قبل أن تحرفه وعد وأخي."

كانت الغرفة في حالة من الصمت المطبق، حتى همسات الأجداد المعلّقين توقفت، كل شيء كان يركز على ذلك الخيط الضوئي الرفيع، وعلى يدي الملوثة بالدم "سوبِك أرام" مدّ يده – يد عمّي – نحوي، لم تكن حركة هجوم، كانت عرضاً.

"أعطني دمك على المرآة وأعطِ أمك عبر البوابة المكسورة وصيتها وسأريكم ما خُفي عنكم ١٢٠ عاماً، الحقيقة وبعدها يمكنك أن تقرر؛ تدميري أو إعادتي إلى ما كنت عليه. وليّاً... لا شيطاناً."

كانت المخاطرة كبيرة، قد تكون خدعة لكن في عينيه رأيت شيئاً لم أره من قبل: حنيناً. حنين كئيب إلى زمن كان فيه نوراً نظرت إلى جدتي وعد عيناها كانتا واسعتين، مليئتين بالذعر الحقيقي الآن هي تخاف من الحقيقة أكثر مما تخاف منّي، ثم نظرت إلى

الخيط الضوئي إلى بقايا أمي هناك قراري لم يكن شجاعاً، كان يائساً، يائساً بما يكفي لتصديق شيطان.

حملت سكيناً حاداً من على الأرض كان بجانب إحدى الجثث المعلقة، وقطعتها على كفي عميقاً، الدم فاض، كان غامق يحمل ألواناً مختلفة تحت ضوء السرداب الخافت.

تقدمت نحو المرآة المكسورة روحياً، السليمة مادياً وضعت كفي النازف على السطح البارد وفي اللحظة التي لامس فيها دمي الزجاج، لم تتوهج المرآة بل بكَت.

دموع من زجاج أسود سالت على سطحها، ومن تلك الدموع، بدأت صورة تتشكل لم تكن صورة الماضي.

بل صورة المستقبل، صورة المستقبل التي كشفتها دموع المرآة:

رأيت نفسي لكنني لم أكن وحيداً، بجانبي وقفت أمي، حية، قوية، تحمل في يدها الصليب والمصحف متحدين في شكل جديد، وراءنا وقف أشباح أجدادي، لكنهم لم يعودوا معلقين، كانوا واقفين، مطمئنين، يشعرون بالسلام، ورأيت "سوبِك أرام" لكنه لم يعد كياناً ظلامياً، كان رجلاً طويل القامة، يرتدي ثياباً بيضاء من زمن قديم، وعيناه كانتا تملآنها الرحمة، كان يبتسم، وبين يديه كان يحمل طفلاً، الطفل كان ينظر حوله بفضول، وعلامة الأهرامات الثلاثة على جبينه كانت تتوهج بلون ذهبي نقي، ثم الصورة اتسعت، رأيت السرداب يتحول، لم يعد مكاناً للرعب، بل أصبح قاعة كبيرة، مليئة بالمخطوطات والكتب، ضوء ناعم يتسرب من فتحات في السقف، مكاناً للدراسة لا للحبس، وفي وسط القاعة على منصة، كانت تقف المرآة – سليمة، صافية، تعكس وجوه من يدخلون لا أشباحهم، بل أحلامهم، ثم تلاشت الصورة، الدموع الزجاجية تجمدت على سطح المرآة، مشكلة كلمات:

"هذا ما يمكن أن يكون، إذا كنت شجاعاً بما يكفي للاستماع... لا للقتل."

رفعت عيناي نحو "سوبِك أرام" لم يقل شيئاً، كان ينتظر كل قوى الظلام في السرداب، حتى جدتي وعد صمتت، وعيناها تنظران إلى المرآة في رعب مقدس، كان لدي خياران:

١. أهرب من الحقيقة، وأحارب، وأحاول تدمير الكيان كما فعل كل أسلافي... وأكرر الدورة.

٢. أقبل عرضه؛ أسمع القصة الكاملة وأخاطر بكل شيء على رؤية ذلك المستقبل حقيقة.

تنفست بعمق، حتى رائحة الدم والتراب القديم والرطوبة ملأت رئتي ثم قلت كلمة واحدة:

"احلكِ."

وفي تلك اللحظة، انفرجت جدران السرداب، ليس لتطلق كائنات الظلام، بل لتنفتح على مكتبة من النور أرفف تمتد إلى ما لا نهاية، عليها كتب من ذهب وورق قديم، وفي وسط المكتبة، كرسي واحد وكأس من دم، دمي أنا موضوع على منضدة صغيرة "سوبِك أرام" أشار نحو الكرسي.

"اجلس، يا وريث الأضداد، وافتح الكتاب الأول: كتاب العهد الحقيقي."

* * * *

صوته لم يكن أمرًا الآن، كان دعوة، دعوة أخيرة قبل أن ينكسر شيء ما داخله إلى الأبد، تقدمت نحو الكرسي ركبتي ترتجفان، الدم ما زال ينزف من كفي، وعندما لمست ظهر الكتاب الأول — كتاب جلد أسود، عليه علامة الأهرامات الثلاثة مُطرزة بخيوط ذهبية باهتة — اختلط دمي بالغبار القديم، الكتاب فُتح من تلقاء نفسه، الصفحات تقلبت بسرعة، تتوقف عند لوحة مرسومة ببراعة:

رسمة لجابر الغنامي — لكن ليس كشيخ حكيم كما تخيلته، كان شابًا في مقتبل العمر، واقفًا في نفس هذه المكتبة، يمسك بيد رجل يرتدي ثيابًا بيضاء، الرجل الأبيض كان "سوبِك أرام"، لكن في هيئته البشرية الأصلية، كان يبتسم وكانا يتبادلان كتابًا.

تحت الرسمة، كُتب بخط عربي قديم:

"في عام ١٢٨٠ هجري، توافق وليّان من عالمين:

جابر بن منصور الغنامي حارس الأرض و"سوبِك أرام" حارس البوابة اتفقا على عهد:

يحميان معًا بوابة بين العالمين، هنا في هذا السرداب، من أن تُفتح لأصحاب النفوس الجشعة، الدم يكون ضمانًا: دم الغنامي يُغلق البوابة من الخارج، دم "سوبِك أرام" يُغلقها من الداخل، وهكذا يظل التوازن."

قلت بصوت مرتعش: "كنتما حليفين..."

رفع "سوبِك أرام" وجهه، وعيناه تُضيئان بنور حزين:

"كنا أكثر من حليفين، كنا أخوين، أخوين في الروح، أنا من عالم آخر، عالم الظلال النقية، لا ظلام، جئت إلى عالمكم بحثًا عن المعرفة، وجابر منحني إياها ونحن منحنا عائلته حماية البوابة، وقوة روحية نادرة لكن القوة؛ تجذب الطامعين."

الصفحة تقلبت إلى رسمة أخرى:

امرأة شابة جميلة جدتي وعد تقف خلف عمود، تستمع إلى حديث بين جابر وشاب آخر. الشاب كان يشبه جابر، لكن عيونه ضيقة، مليئة بالحسد، في يد المرأة: لفافة قديمة، عليها ختم أسود.

"أشرف، أخي الأصغر، كان يريد القوة لنفسه. وعد، زوجة جابر... كانت تريد الخلود. توافقا. وسرقا مني "كلمة الفتح" التي تحوّل البوابة من حاجز إلى... مصدر طاقة لا ينضب. حاولا فتحها بالكامل. جابر اكتشف المؤامرة، وحاول إيقافهما. في المعركة... أشرف طعنه، ووعد أقنعت العائلة أن جابر "جنّ" وتحالف مع كيان شرير ـــ معي أنا."

الصفحة تقلبت. رسمة مروعة:

جابر يُربط بالسلاسل في هذا السرداب نفسه. وعد تقرأ من اللفافة المسروقة طلسمًا. أشرف يدفع بابًا حجريًا ليُغلق على جابر وهو حي. والباب... كان الباب الذي دُفن خلفه جابر، الباب الذي أصبح "ضريح الولي" الذي ظننتُه قبرًا.

شعرت بغثيان. كل تاريخ عائلتي كان مبنياً على كذبة.

سألتُ، وأنا أنظر إلى شكله المشوه الآن.

"وماذا عنك؟"

"عندما أغلقت البوابة من الداخل لمنعهم من فتحها، غضبوا، استخدموا الطلسم المسروق، ليس لفتح البوابة، بل لتشويهي، حبسوا روحي في هذا الشكل، هذا المسخ، حولوني من حارس للتوازن إلى شيطان السرداب، وكل جيل من عائلتك، لأن في عروقهم دم جابر، كان عليه أن يحرس السرداب في الحقيقة، أن يحرسوني أنا هنا، كي لا أهرب وأكشف الحقيقة."

الصفحة الأخيرة فُتحت. لم تكن رسمة. كانت عقدًا مكتوبًا بدماء متعددة:

"عهد الإصلاح:

١- دم الوريث المختلط مسلم + مسيحي + مصري + إيطالي يغسل طلسم التشويه.

٢- اعتراف الخائنة وعد بجريمتها أمام أرواح الأجداد.

٣- إعادة دفن جابر الغنامي في تربة طاهرة.

٤- إغلاق البوابة نهائيًا، بإرادة الحارسين معًا: وريث الغنامي، و"سوبِك أرام"

نظرت إليه قائلًا: "لكن إغلاق البوابة نهائيًا... يعني؟"

ابتسم لأول مرة بابتسامة حقيقية، حزينة:

"يعني أن أذهب إلى عالمي للأبد، يعني أن أنام بسلام، يعني أن أترك عالمكم، بعد أن أُصلح ما أفسده ظلم أهله."

كان الخيار واضحًا الآن، لكنه كان أصعب مليون مرة، وضعت يدي على العهد المكتوب، دمي يغطي كلمات الدم القديم.

"ماذا تريد مني أن أفعل الآن؟"

نهض "سوبِك أرام" وتقدم نحوي، المكتبة كلها بدت تتنفس معه.

"أولاً: يجب أن تواجه جدتك بالحقيقة، وأن تسمع اعترافها.

ثانيًا: يجب أن نجد جسد جابر الحقيقي — ليس في الضريح الزائف، بل في الجدار الذي دُفن فيه.

ثالثًا... يجب أن تُكمل الطقس الذي بدأته أمك عبر المرآة."

صرخت قائلا :

"أمي... هل هي بخير؟"

"روحها عادت إلى جسدها في إيطاليا، لكنها لن تستيقظ حتى تنتهي مما أمرتك به. وقتك... وقتها... محدود."

التفتُّ نحو جدتي وعد، كانت تحاول الاختباء داخل ضريحها، لكن ضوء المكتبة الجديد كان يسلط عليها أشعة لا تُهرب، سحب "سوبِك أرام" شيئًا من تحت ثيابه — خاتمًا فضيًا قديمًا، عليه علامة الأهرامات الثلاثة.

"خذ هذا. كان لجابر، من يلبسه تسمعه أرواح الأجداد المعلقة، استخدمه لتجبر وعد على قول الحقيقة."

أخذت الخاتم، كان باردًا كالجليد، لكن حين وضعته على إصبعي، دفق من الطاقة — ليست شريرة، ليست طيبة، بل محايدة، قوية، قديمة — اخترقت ذراعي وتحول صوتي دون أن أقصد:

"وعد بنت حسن الحربي. أقسم بدم جابر الذي خانته، وبالعهد الذي مزقته... أن تقفي هنا وتقولي الحقيقة كاملة."

لم تكن كلماتي أنا. كانت كلمات جابر الغنامي تخرج من حنجرتي، الغرفة كلها ارتجت. الأجداد المعلّقون فتحوا أعينهم — كلهم في وقت واحد — ونظروا إلى وعد.

وعد ارتعشت، ثم فتحت فمها وصوتها خرج مكسورًا، يعترف بالحقيقة التي أخفتها ١٢٠ عامًا وفي اللحظة التي بدأ فيها اعترافها، سقط جدار في نهاية المكتبة، وكشف عن هيكل عظمي ما زال ممسكًا بمخطوطة، مدفونًا في الجدار، جابر الغنامي وجدناه.

* * * *

الفصل الأخير : القيامة تحت الأرض.

لم يظهر جابر بنسخته التي عرفناها من قبل، بل ظهر بنسخة أخرى نسخة لم تولد من تربة القبور بل من قلب الظلام نفسه، خروجه قلب كل الموازين في لحظة واحدة،

تحوّل "سوبِك أرام" من حليف يقف بجوارنا إلى عدو يقف ضدنا، لم يمهله جابر ثانية واحدة، انقضَّ عليه كعاصفة سوداء مشتعلة، وفي اللحظة نفسها صاحت كل كائنات الظلام صيحة واحدة هزّت السرداب، سقطت جثث العائلة المعلقة في السقف واحدًا تلو الآخر فوق جسد جابر المتحوّل، ارتج القصر كله، انهارت الأضواء دفعة واحدة...

كأن المكان دخل في ليلٍ لا نهاية له، جدتي وعد لم تعد جدتي، تحولت أمامي إلى كيان هلامي ضخم من الظلام يتنفس كالدخان ويتحرك كالطوفان، وفجأة، بدأت أجساد العائلة الميتة تظهر:

عمّتي سمية... عمّتي رقية...عمّي صبيح... عمّي كامل...

وداد... محروس... صفوت... عبد الحميد...وكل الخدم الذين فقدوا أصواتهم عبر السنين وقفوا وسط ظلال كثيفة، وجميعهم يحدّقون في مكان واحد، حيث خرج وريث الظلام من بطن عمّي كامل، جسد لم يكتمل ولكن قوته سبقت ولادته، تشققت الأرض أسفل القصر، وظهرت مدينة مدفونة تحتها، مدينة لم تُذكر في أي كتاب ومن بين شقوقها ظهرت آلاف الأجساد الهزيلة رؤوس بلا عيون، أفواه مفتوحة كأنها تنادي شيئًا واحدًا:

«الـوعـــــاء...»

لم أستطع الحركة، الظلال سحبتني للأسفل، شعرت أنني أفقد هويتي... روحي... عقلي، لكن حينها... المرآة أضاءت للمرة الأولى منذ ١٢٠ عامًا ضوء يشبه قيامة قديمة...

ثم كشفت حقيقة لم يتخيلها أحد:

لعنة الجد الأكبر لا تنكسر إلا إذا أخذ أحد أحفاده مكانه، ودُفن حيًا كما دُفن هو.

لكن المفاجأة الكبرى جاءت الآن:

من أحد الأضرحة، خرج الجسد الحقيقي لجابر الغنامي، جسد أُعيد تشكيله من الظلام والرماد والدم القديم.

نظر إليّ وقال بصوت يفيض بالموت والرجاء:

«إذا أردت كسر اللعنة، ادفن جسدي الآن، الوقت ينفد يا وريثي...»

ثم أشار إلى نسخة مصغرة من المرآة القبطية، ركضت نحوها، أمسكتها بكل قوتي، اقتربت منه، وضعت المرآة فوق صدره، صرخ جابر وتمزق جسده إلى رماد أسود طائر.

وفي تلك اللحظة صرخت القرية كلها صرخة واحدة!

الأرض اِهتزت، نصف القصر اِنهار والريح تحولت إلى أصوات بشرية تبكي وتتوعد، ثم حدث ما لم أتوقعه أبدًا:

رماد الجد جابر اخترق صدري... صرخت...شعرت بقلبي يتمزق ويُعاد تكوينه، ثم ظهرت على وجهي نفس الندبة القديمة للجد الأكبر جابر الغنامي، وعندما فتحت عيني لم أكن أنيس، ولا ريتشارد كنت:

★ الحــارس الجــديــد ★

ليس حارس العائلة بل حارس الأرض كلها، تراجعت جميع كائنات السرداب في صمتٍ مقدس، ثم انحنوا لي وقالوا بصوت واحد عظيم:

«لم تنتهِ اللعنة...لقد أصبحتَ قائدنا الآن، قائد عالم الظلام والمسوخ...»

اِنهار القصر فوق رؤوس الجميع، انطفأ كل شيء، ثم...بين الضباب والظلام سمعت آخر صوت:

طرقات خفيفة تأتي من تحت الأرض، وكأن عالماً كاملاً ينتظر أمري.

اختفى القصر، اختفت العائلة، أما أنا نزلت إلى الجحيم نفسه إلى عالم الظلام ومعي القائد "سوبك أرام" وكائناته.

لكن هذه المرة، لم أكن تابعًا لأحد، هذه المرة...أنا الســيّد.

* * * *

صراخهم تلاشى، ليحل محله صمت سميك، ثقيل، ينبض بنبضات قلبي الجديد، نبضات ليست كالسابقة. كانت أبطأ، أعمق، كأن الأرض نفسها هي التي تنبض من خلالي، الندبة على وجهي — ندبة جابر الغنامي — لم تكن ندبة جلد، كانت شقًا في الواقع. أشعر من خلالها بتدفق كل شيء. همسات المدينة المدفونة تحت المنيا، أنفاس كائنات الظلام في الزوايا المنسية من العالم، صرخات أرواح عائلتي التي انسحبت الآن إلى الظل، تاركة إياي وحدي في العرش الجديد.

"سوبِك أرام" كان واقفًا أمامي، لم يعد مبتسمًا، لم يعد متعاليًا، كان ينحني، ركع على الأرض السوداء اللامعة التي تشكلت تحت أقدامنا، في قاعة العرش الجديدة تحت الأنقاض، قالها بصوته المزدوج، لكن النبرة كانت واحدة الآن: نبرة الخضوع.

"سيدي."

حولنا، الآلاف من تلك الأجساد النحيلة، رؤوسها بلا عيون، أفواهها المفتوحة، كانت ترتجف في صمت، تنتظر كلمة واحدة مني، وسينفذون أي شيء.

رفعت يدي — يدي اليسرى، حيث الخاتم الفضي لجابر — ونظرت إليها، العلامات تغيرت. خطوط ذهبية وغامقة تتشابك على جلدها، خريطة قوة لم أفهمها بعد، لكنني شعرت بها، سألت وصوتي كان مختلفًا، أكثر خشونة، يحمل صدى، كأن عدة أصوات تتحدث معًا من حنجرتي:

"ما الذي حدث بالضبط؟"

رفع "سوبِك أرام" وجهه، وعيناه السوداوان تعكسان شكلي الآن: رجل شاب، لكن بعينين قديمتين جدًا، وندبة على وجهه تشع بضوء ذهبي خافت.

"لقد دفنت الجسد، ولكنك استقبلت الروح، روح جابر لم تكن تريد أن تذهب للراحة. كانت تريد أن تنتقم، أن تصحح الخطأ بطريقته هو، وهكذا نقل العهد من العائلة... إليك أنت وحدك، أنت لم تكسر اللعنة، أنت ورثتها كاملة، أصبحت الوعاء الذي طالما انتظروه."

اتسعت حدقة عيني قائلا : "الوعاء... لأي شيء؟"

ابتسم، لكنها لم تكن ابتسامة فرح، كانت ابتسامة قدر.

"العالمين ـــ عالم النور وعالم الظل ـــ كانا دائمًا منفصلين بباب، جابر وأنا كنا حراس ذلك الباب، عندما خانته وعد وأشرف، تشوه الباب، أصبح مسربًا، قوى الظلام النقية تسربت وأصبحت مسوخًا، وقوى النور تسربت وأصبحت هوسًا بالطهارة.

أنت الآن الوعاء الذي يجمع التسرب، كل ما هرب من عالم الظل يتدفق إليك، وكل ما هرب من النور... سيتبعك."

بدأت أفهم. الرماد الذي دخل جسدي لم يكن مجرد رماد، كان مسؤولية، أصبحت الآن مغناطيسًا للخوارق، لكل ما لا ينتمي تمامًا لهذا العالم، أشرت إلى الجموع الصامتة حولنا:

"وماذا عنهم؟"

ابتسم "سوبك أرام" قائلا :

"هم المنفيون، كائنات لم تنتمِ لعالم الظل ولا لعالم النور، ضائعة، وأنت الآن؛ وطنهم، قائدهم حارس البوابة الجديدَ."

سكتُ، الصمت امتد، ثم من أعماق ذاكرتي الجديدة ـــ ذكريات جابر التي تتدفق ببطء ـــ عرفت ما يجب أن أفعله أولاً.

سألت بإقتضاب شديد : "أين أنا الآن بالضبط؟"

أجاب "سوبك أرام" بنبرة منخفضة :

"في الدهليز، المنطقة بين الأنقاض، بين المنيا التي فوقنا، والمدينة المدفونة التي أسفلنا. مكان الانتظار، ومن هنا يمكنك الذهاب إلى أي مكان تريده. يمكنك فتح أبواب إلى أي ظل في العالم."

فكَّرت في أمي في إيطاليا، في الصباحات الهادئة مع الكروسان والقهوة، كان ذلك العالم يبدو الآن كحلم بعيد، حلم لطفل مات، قلت بنبرة طفل برئ :

"هل يمكنني العودة؟ إلى هناك؟ إلى عالم النور؟"

نظر إليّ "سوبِك أرام" بنظرة طويلة ثم قال:

"يمكنك العودة كزائر، لكن الشمس ستؤلمك الآن، والضوء الصافي سيُظهر ظلك الحقيقي ـــ الظل الذي أصبحت عليه، وأنت لن تستطيع البقاء طويلاً، فالتسرب يتبعك حيثما تذهب، ستفتح بابًا صغيرًا بين العالمين، والمسوخ ستتبعك."

أدركت حينها أن ذلك السجن ليس مجرد قيود، بل قوة كونية خُلقت لأجلي أنا، سجن يحبسني، لكنه في الحقيقة ينتظرني لأجلس على عرشه، سألته مجددًا :

"ماذا عن عائلتي؟ الموتى... الذين ظهروا؟"

أجاب القائد "سوبك آرام" قائلا :

"هم الآن تحت أمرك، أرواحهم مربوطة بالعهد الجديد، يمكنك إطلاق سراحهم أو إبقائهم كخدم، أو استخدامهم كعيون في العالم العلوي."

رفعت يدي مرة أخرى، الأجساد النحيلة ارتعشت كلها في آن واحد، كأنني مسكت بخيوط غير مرئية، ثم نطقت بجملة ولم أكن متأكدًا مما أطلب:

"أريد... أن أرى."

لكن "سوبِك أرام" فهم، أومأ ثم أشار بيده نحو أرضية القاعة السوداء، تكونت بركة من الظلام السائل، ثم صفت كمرآة ورأيت:

والدتي في إيطاليا، تجلس بجانب سريري الفارغ، تبكي بصمت، وتحتضن الصليب والمصحف، منزل العائلة في المنيا، مدفون تحت الأنقاض، والجيران يتجمعون في حيرة، والشرطة تحاول الحفر، شارع في القاهرة، حيث ظل طويل ظلي أنا يمشي خلف رجل لا ينتبه، ويتسلل إلى أحلامه.

أنا في كل مكان، وأنا في لا مكان.

أغلقت عيني، الندبة على وجهي طبعت كالحديد الملتهب ثم همست قائلًا :

"ماذا الآن؟"

قال "سوبِك أرام" وصوته يبدو أقرب، كأنه يقف بجانبي الآن.

"الآن تتعلم، تتعلم كيف تحكم، كيف تتحكم في التدفق، كيف تكون الحارس والملك، ولدينا الوقت، كل الوقت في العالم، لأن العالمين؛ لا يهرمان لمن يعيش بينهما."

فتحت عيني، النظرة التي نظرت بها إليه —— نظرة السيد إلى خادمه الأمين —— جعلته ينحني أعمق، قلت والسلطة في صوتي تأتي من مكان عميق ومظلم وجديد:

"أول درس."

"أريد أن أرى كل الأبواب، كل التسريبات، كل المنافي في العالم، أريد خريطة لمملكتي الجديدة."

ابتسم "سوبِك أرام" هذه المرة، كانت ابتسامة رضا:

"كما تأمر، سيدي."

رفع يديه، الآلاف من الأجساد النحيلة فتحت أفواهها المظلمة، وبدأت تغني أغنية بدون كلمات، فقط نغمات عميقة، تشق الظلام والجدران حولنا ذابت، ليكشفوا عن مشاهد لا حصر لها:

غابة في الأمازون، حيث ظلال قديمة تنتظر.

أرشيف سري تحت الفاتيكان، حيث كتب محرمة عن البوابات.

جزيرة نائية، حيث قبيلة تحرس بابًا حجريًا.

وشوارع المدن الكبرى، حيث البشر يعيشون غير مدركين أن ظلالهم تنظر إليهم أحيانًا، وتلتقط همساتهم، أصبحت أرى كل شيء وأدركت:

اللعنة لم تنتهِ. أنا أصبحتُ اللعنة نفسها وأصبحت الحارس، الملك، الوعاء، والقيد والقصة... لم تبدأ بعد.

*** * * ***

أنا أنيس يحيي منصور جابر الغنامي، الحفيد الأخير، والوريث الذي لم يكن من المفترض أن يولد، أبلغ من العمر سبعةً وعشرين عامًا، نصف دمي إيطالي مسيحي ورثته من أمي ويندا لينا ونصفي الآخر مصري صعيدي مسلم ورثته من عائلة الغنامي، العائلة التي يقال إن لعنتها أقدم من أهلها وأعمق من قبورها، وُلدت في مارس ١٩٩٨، من مواليد برج الحمل—البرج الذي يُقال إن مواليده يولدون ليقودوا أو ليُقتلوا بسبب القيادة.

درستُ المحاماة في إحدى أشهر جامعات إيطاليا، البلد الذي قضيت فيه معظم حياتي بعد أن أخذتني أمي معها وأنا طفل لا يحمل من أبي سوى الاسم ومن الوطن سوى الدم لكن الحقيقة؟ لم تُغادرني أصولي العربية لحظة.

كانت كأنها ظلٌّ خلفي...ظلٌّ ينتظرني حتى أكبر، حتى أقوى، حتى أعود، فأنا لست مجرد خليط بين ثقافتين، أنا التقاء بين ديانتين، بين دمين، بين طريقين لا يجب أن يتقاطعا...

ومع ذلك التقيا داخلي، أنا أنيس آخر من تبقى من سلالة الغنامي ومفتاح تلك اللعنة التي رفضت أن تموت.

أو أخر ما تبقي من أنيس .

****

بعد مرور عامين كاملين على اختفاء قصر عائلة الغنّامي، ذلك الاختفاء الذي ابتلع معه العائلة بأكملها، حدث ما لم يتوقّعه أحد، في صباح خانق من عام ٢٠٢٧ ظهر القصر من جديد، لم يظهر في أطراف القرية كما كان دائمًا، بل في قلب المدينة، وقف البناء الطاعن في القدم بين العمارات الحديثة كجسد عائد من قبره غريبًا، متخشّبًا، كأنه بُني في ليلة واحدة دون عاملٍ واحد، كانت نوافذه سوداء حتى تحرك شيء خلف الزجاج رآه الناس أول مرة: ظل أنيس لم يعد بشرًا، كان طيفًا متحركًا بسرعة غير طبيعية، يرسم على النوافذ جميعها، يرسم بالفحم الذي كانت تستخدمه عمته رقية و تكتب به طلاسم السرداب منذ سنوات طويلة، كان أنيس يرسم السرداب:

ممرًا مظلمًا يتدلّى فوقه سحاب أسود كثيف، وتحوم حوله طيور جارحة—نسور، صقور، غربان، وبوم—كأنها حراس سماء لا تخصّ البشر، مرّ شاب من القرية، عنيدًا لم يسمع التحذيرات التي تتردد منذ عودة القصر:

"لا تقترب... إن ظهر القصر من جديد، فابتعد."

لكن الرسم على النوافذ أسر قلبه، اقترب، عندها تحرك ظل أنيس بسرعة خاطفة، خطوة واحدة، ثم أخرى...

كأن الظل يقفز بين زوايا الزجاج دون منطق، انقبض قلب الشاب فجأة، وسقط أرضًا يتلوّى وكأن أصابعًا باردة تعصر روحه، كان يلهث بعنف، يبحث عن هواء لا يأتي، وقبل لحظة موته، رفع رأسه ببطء ونظر إلى نافذة القصر.

كان أنيس، حيث هناك ابتسامة ممتدّة حدّ التشوّه، ابتسامة من لا ينتمي لجسده ولا لزمانه، شهق الشاب الشهقة الأخيرة... ثم سكن تمامًا.

بعد الحادث، لم ينتظر أحد ليفهم، هرب أهل القرية كلّهم، حملوا حقائبهم كما يحمل الهاربون من لعنة مكتوبة في أقل من ثلاثة أيام أصبحت القرية مهجورة بالكامل؛ بيوت فارغة، أبواب مفتوحة، وكأن الجميع فرّوا في اللحظة نفسها، تحولت المنطقة إلى منطقة محظورة:

لا اقتراب، لا تصوير، لا ذكر لإسمها حتى مجرد وجودك قرب أسوارها يعني أنّك تدعو السرداب ليراك، لكن الرعب لم ينتهِ في اليوم الذي أُغلِق فيه القصر نهائيًا، حدث شيء لن ينساه أحد ممن شاهدوه:

تبخّر الرسم من النوافذ، لم يختفِ، بل تلاشى ببطء، كأن الفحم يتحول إلى دخان ويتنفس، ثم فُتحت إحدى النوافذ من تلقاء نفسها، وانطلق منها طائر أسود عملاق، جناحاه يضربان الهواء بصوت يشبه أنينًا معدنيًا حادًا، طاف الطائر فوق القرية، ثم توقف فوق جدار كبير عند المدخل.

وبطريقة تعجز عنها يد بشر، انطبع على الجدار نقش غامق كُتب فيه:

"قرية أهل السرداب."

عاد الصمت، ثم ارتجّ الهواء فجأة وهمس صوت أنيس، لا من القصر... بل من تحت الأرض:

"السرداب... لَم يُغلق بعد."

تمت

لمتابعة الكاتبة

صفحة الفيس بوك : الكاتبة مروة يحيى حسن

https://www.facebook.com/profile.php?id=61585308150934

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023